حِكَايَات بُطولِيَّة للأطفَال (١٠)

لغز الأطفال والبندقيّة في مخيم الدهيشة

تأليف: روضة الفرخ الهدهد
رسوم: د. ليلى البسطامي

رقم الايداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٦/٦/٢٣٤

الإهداء

لأنها تحب الأرض والوطن .. أحبت يافا وفلسطين وما فتئت تذكرهما في كل يوم وليلة ..

لأنها تحب العلم والطموح .. لا ترضى بالقليل لها ولأولادها ولأمتها العربية ..

لأنها تتحمل المسؤولية وتتقبل النقد .. وتبديه نقداً إيجابياً بناءً ونصحاً يدفع للعمل المنتج المخلص ..

لأنها تحب أبناءها بلا تفرقة أو تمييز .. تفكر بكل واحد وكأنه وحيدها .. في صحته أو مرضه، قوته أو ضعفه، قربه أو غربته ..

لأنها الصدر الحنون .. يظهر الحب والحنان لأولادها وأحفادها ..

لأنها تحب الأهل، وتصل الرحم وتسأل عن الجار، تحب أصدقاء ومعارف وأهل أبنائها وكأنهم أصدقاؤها ومعارفها ..

لأنها مثقفة واعية، واسعة الاطلاع، تقرأ فتناقش ما تقرأ .. تسمع وترى فتحلل ما تسمع، لتعطي رأيها وتستمع لآراء الآخرين.

لأن لها تفكيراً سياسياً واعياً موضوعياً واضحاً .. تحب الوطن لحبها لأبنائها بلا مصالح ولا غايات ..

لأنها أمي التي أحب ..

أهدي لها هذا الكتاب

﴿١﴾

فجأةً... إذ بالفرامل تضغطُ بقوةٍ.. وإذ بالحافلةِ تتوقفُ دفعةً واحدةً.. وإذ بالطلابِ يندفعونَ إلى الأمامِ، بينما يتدافعُ الطلابُ الواقفون حتى يسقطوا فوقَ بعضهم البعض..!!

ما الذي جرى يا ترى؟!

كانت الحافلاتُ الثلاثُ تحملُ التلاميذَ في رحلةٍ إلى الجبالِ القريبةِ مِن مخيمِ الدهيشةِ، وكان الطلابُ الذكورُ في حافلة والاناثُ في حافلتين، قد انطلقوا من مدارسهم في رحلةٍ مدرسيةٍ للتعرفِ على الطبيعةِ..

وكانت حناجرُ الفتيات والفتيان وأكفهم لا تتوقفُ لحظةً واحدةً عن الغناءِ والتصفيقِ،

وفجأة، وبينما هم في هرجٍ ومرجٍ إذ بالفراملِ تَضغَطُ والحافلاتُ تتوقفُ والطلابُ يتدافعونَ وقد تحوَّلَ الغناءُ الى صراخ..

قالَ السائق: لا تخافوا.. اجلسوا في اماكنكمُ.. فالأمرُ بسيطُ.. حاجزُ اسرائيلي مفاجيء أوقفنا للتفتيشِ وسنواصِلُ المسيرَ بعدَ دقائقَ..

أطلَّ الجنديُّ الاسرائيليُّ من البابَ فقالَ السائق بهدوءٍ:

هذه رحلةٌ مدرسيةٌ، وهذا هو الإذنُ والتصريحُ بالرحلةِ، وها هي قائمةٌ بأسماءِ المعلمينَ والمعلماتِ المرافقين.. وأسماءِ الطلاب..

ولم يستمع الجنديُّ للسائقِ.. بل أشارَ للتلاميذ بيده وطلبَ منهم النزولَ من الحافلةِ فوراً..

وأوجستِ المعلماتُ خيفةً من الأمرِ.. وأخذنَ يبسمِلنَ ويقرأنَ في سرِّهنَّ الآياتِ القرآنية ليتلطَّفَ اللهُ بهن وبطلابهن أمام هذا الحاجز الاسرائيلي..

وتدافع الطلابُ للنزولِ.. كانوا يفيضونَ حماسةً وسعادةً وبراءةً.. ولذلك كانوا يتصايحون ويتدافعون.. كلٌّ يريدُ النزولَ اولاً.. وما انْ اندفعت أول مجموعة خارج الحافلة حتى صرخ الجندي الاسرائيلي بهم قائلاً:

- أنتم.. أيها الأطفال الوقحون.. ألا تتعلمون النظام ابدا؟؟

انتظموا في الصف.. هيا.. التزموا الصمت.. أولاد عرب وقحين..!!

ذُهلَ الطلابُ وحاولوا الانتظامَ والسكوتَ.. ولكنَّ مجموعة أخرى من داخلِ الحافلةِ كانت لا تزالُ تتدافعُ للخروج.

هل يعصي هؤلاء الطلبة أمري؟؟ يغيظونني؟! يضايقونني؟! ودون ترددٍ أخَذَ الجنديُّ يطلقُ الرصاصَ على أرجلِ التلاميذِ وفي الهواء..

غابت الابتسامةُ وعمَّ الخوفُ والرهبةُ نفوسَ الطلابِ.. وارتمت سناء عبدالكريم على الأرض وتدفَّقَ الدمُ غزيراً من رجلِها.

في تلك الأثناءِ كانَ سعيد عبدالكريم لا يزالُ في مكانِهِ في الحافلةِ الثانيةِ.. وقربهُ الأستاذ خالد والطلاب، يراقبون ما يجري.. ولما رأى سعيد أخته سناء وقد ارتمت أرضاً أخَذَ يصيح:

-أختي.. أختي سناء..

وفي ثوان حملَ سعيدُ أخته سناء وعادَ الى مقعدِهِ، ودمُها يسيلُ على ملابسِه وملابسها..

ونظّم الاستاذ خالد حملَ المصابينَ إلى الحافلةِ للانطلاق بهم الى المستشفى.

* ٢ *

هناكَ في مخيمِ الدهيشةِ، كانَ كُلُّ شيءٍ على ما يرام.. بائعُ الخضارِ.. محلُّ النوفوتيه.. دكان أبو سعيد البقال.. محلُّ الكهرباء.. والناسُ تشتري وتبيع.. وفجأةً.. وقفت الحافلاتُ الثلاثُ في الشارعِ الرئيسي.. وتعالى صياحُ الطلابِ والطالباتِ.. وفي لحظات خرجَ الرجالُ والأولادُ من دكاكينهم.. والنساءُ والأطفالُ مَن بيوتِهم.. وأقبلوا على الحافلاتِ لمعرفةِ خبرِ عودتهم المفاجيء..

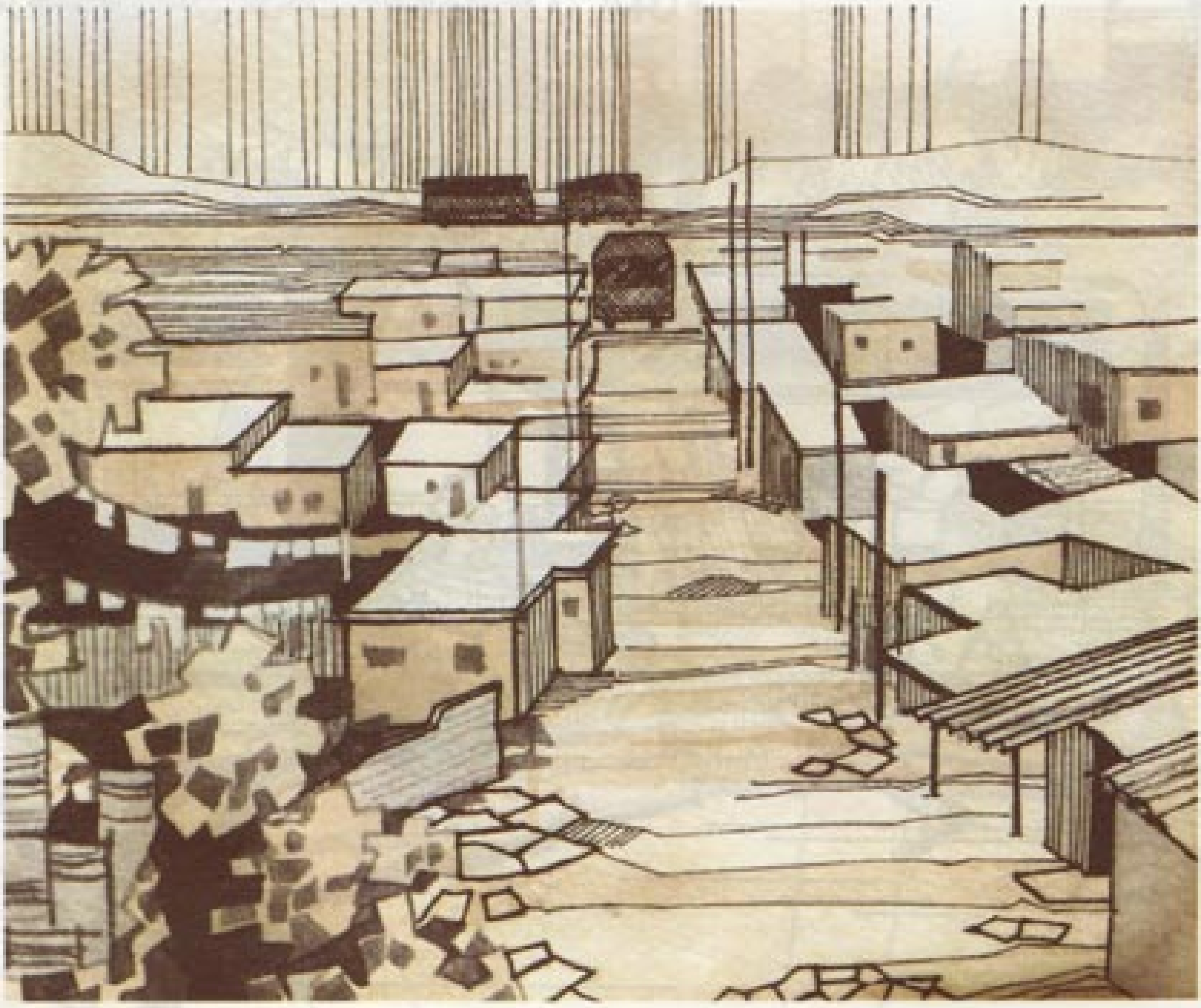

وأطلّت أمُّ سعيدٍ تبحثُ عن ابنتِها سناء فلم تجدها.. وسألت سعيد عنها فلم يُجبها.. وتدافعتِ النسوةُ كلٌّ تريدُ ان تطمئنَّ على ابنها أو ابنتها.. وهاجَ المكان.. وتعالتِ الأحاديثُ، فها هو المخيم يتعرضُ لحادثِ اعتداءٍ جديدٍ يضافُ الى سجلِّ الاعتداءاتِ التي يتعرَّضُ لها كلَّ مدةٍ..

وبينما الوضعُ في قمّةِ الغليانِ، اذ بسيارة من سيارات الشرطة العسكريةِ الاسرائيليةِ تدخلُ الشارع الرئيسيَّ صدفةً، وتقتربُ من هذا الحشدِ الهائلِ ولقد راود السائقُ نفسَهُ أن يعود أدراجَهُ.. ولكن وفي اللحظةِ نفسِها، كانَ سعيد عبدالكريم وزميلُه عيسى عبد ربه وبعضُ الشباب يحملونَ الحجارةَ ويلقونَها على السيارةِ..!!

وتحمَّسَ الشَبابُ واستدارت السيارةُ في الحالِ وأنهالت الحجارةُ كالمطر عليها، وغابت عن الأنظار..!!

وأحسَّ عيسى وسعيد والأهل ببعضِ السعادةِ والارتياحِ .. فقد انتصروا على رجالِ الشرطةِ المدجّجين بالسِّلاحِ . وقد عادت السيارةُ العسكريةُ من حيث أتت ولم تجرؤ على الوقوفِ ثانيةً واحدةً..

ولكن.. وبعدَ دقائق، اذ بعشراتِ السياراتِ العسكريةِ تدخلُ الشارعَ الرئيسيَّ في المخيمِ ، وتطلقُ أبواقها على أعلى موجةٍ!!

ورانَ السكونُ على الجميعِ .. وأطل من السيارةِ الأماميةِ عشرةُ رؤوسٍ ، يحملُ أحدهُا مكبراً للصوتِ، ويحملُ الآخرون قنابلَ وبنادِقَ، قال الأول:

ـ إعلان إلى أهالي مخيم الدهيشةِ، عودوا إلى بيوتِكُم حالاً.. فُرِضَ منعُ التجوُّلِ في المخيمِ من الآن وحتى إشعارٍ آخر..

وضربت أمُّ سعيدٍ بيدِها على صدرها وقالت:

ـ لعنةُ اللّهِ عليكمُ..منع تجوُّلٍ وإلى اشعارٍ آخر! يعني إلى متى؟.. أسبوعاً؟ أسبوعين؟ وابنتي سناء تبقى في المستشفى لا ازورها ولا أطمئن على رجلِها المصابة!

ـ يمه يا سعيد، خذني الآن إلى المستشفى..

وأعادَ الشرطيُّ حديثَهُ بصوتٍ أعلى وأعلى..

- إلى بيوتِكم حالاً.. أقفلوا المحلاتِ، أوقفوا الحركةِ، هيّا تحركوا.. هيا تفرقوا..

وقبلَ أن يُنهي كلامَه، كانَ رفيقُهُ يلقي قنبلةً بين الجموعِ هنا وهناك. قنابلَ مسيلةٍ للدموع. وفي لحظاتٍ بدأ الرجالُ والنساءُ والأطفالُ يدمعونَ ويعطسونَ وتسيلُ أنوفهم.. وأما رجالُ الشرطةِ العسكريةِ فكانوا يلبسونَ الأقنعةَ البلاستيكيةَ ويدفعونَ الناسَ بأعقابِ بنادقِهم وعصيِّهم..

دخَلَ أبو عيسى عبد ربه إلى دكانه، وبسرعةٍ اعتاد عليها، أدخلَ البضاعةَ التي في الباب، وأقفلَ الدكانَ، وانسحبَ الى بيتِهِ يجرُّ أم عيسى.. وتحرَّكَ بعضُ الأهلِ بهدوءٍ وانسحبوا إلى بيوتهم يضعونَ المناديلَ على وجوههم.. ولكن البعض وقفَ متحدّياً القرار، ينظر الى الأرضِ مرةً، وإلى وجهِ العسكريِّ بقناعِهِ البلاستيكيِّ مرةً أخرى.. وفجأةً وبعدَ تردُّدٍ، إرتفعت بعضُ الأيدي ترمي الحجارةَ على السياراتِ والرجالِ..

وارتفعت البندقيةُ في يدِ الشرطةِ تطلقُ الرصاصَ على الجموعِ..

كانَ سعيد عبدالكريم ينظرُ إلى البنادقِ في يدِ الشرطةِ والحسرةُ تأكُلُ قلبَهُ، فكلُّ الأمرِ متعلّقٌ بهذِهِ البندقيةِ.. كلُّ التحكُّمِ والإذلالِ والتجبُّرِ مركّزٌ في فوّهةِ هذهِ البندقيةِ.. سناء وصديقاتُها أُصبْنَ بهذِهِ البندقيةِ.. الرجالُ والنساءُ يتحرَّكونَ ويعودونَ إلى بيوتِهم مكسوري الخاطرِ، مهيضي الجَناحِ، بسَبَبِ هذِهِ البندقيةِ.. ليتني أحصلُ على مِثلها.. ليتني أمسِكُها.. ليتني أستولي عليها.. فواحدةٌ من تلكَ البنادقِ تساوي ألفَ حجرٍ.. بل تُساوي عشرةَ آلافِ حجرٍ!!

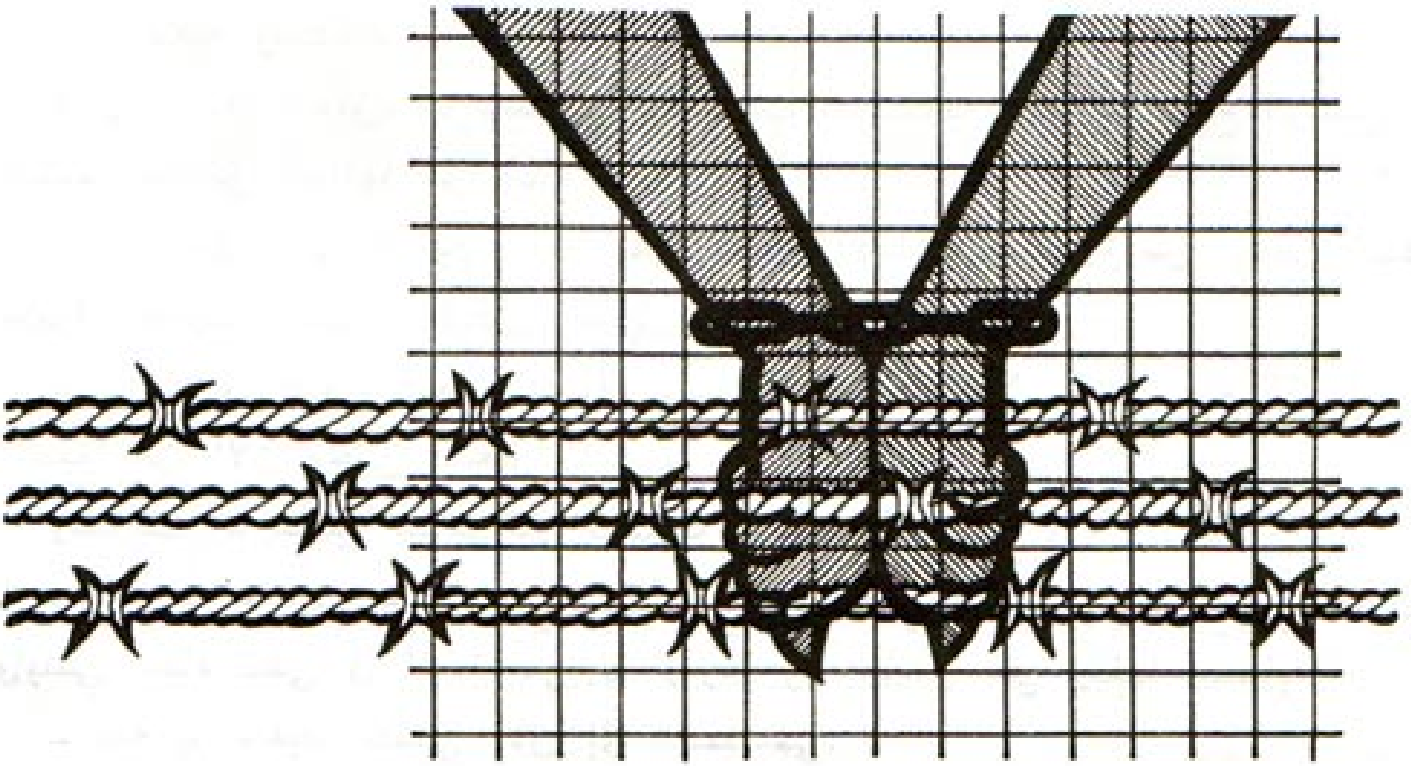

اندفعَ عيسى إلى الامامِ بلا تردُّدٍ ولا تفكيرٍ.. وهجمَ على الشرطيِّ يأخذُ منهُ بندقيتَهُ.. ولمّا رآهُ صديقُهُ سعيد وحيداً بينَ أيدي الشرطةِ اندفعَ هو الآخر لنجدتِهِ.. وفي خلالِ ثوانٍ كانَ ما لا يقلُّ عن العشرينَ شاباً من شبابِ المخيمِ مقيدّينَ بالسلاسِلِ ويساقونَ الى السجنِ..!!

* ٣ *

هناكَ في السجنِ وبعدَ أيام، التقى الأستاذُ خالد مع الطالبين سعيد عبدالكريم وعيسى عبد ربه.. كانت آلامُهم واحدةً. فلقد أشبِعُوا ضرباً بالعصيِّ والهراواتِ الثقيلةِ.. وكانت ذكرياتُهم واحدةً مليئةً بالمآسي والأحزانِ..

قالَ الاستاذُ خالد:

ـ هذه ليست أولَ مرةٍ أتعرَضُ فيها لهؤلاءِ الشياطينِ.. أتذكرون عندما دَخلوا مدرستَنا[1] قبلَ ثلاثةِ أشهر؟؟ يومها أوقفونا جميعاً، الأساتذةُ والمديرُ، وطلبوا منا المشي على أيدينا وأرجلِنا والنباحَ كالكلاب.. وأين؟؟ في الساحةِ، وأمامَ من؟؟ أمامَ الطلابِ كلِّهم..

كاد عيسى وسعيد انْ تفلتَ من صدرهما ضحكةُ عاليةُ وهما يتذكران منظر المديرِ والاساتذةِ يدورون خلفَ بعضِهم البعضِ وينبحَون كالكلاب.. ولكنّهما كتَما الضحكةَ احتراماً للاستاذ..

وأكملَ الاستاذُ حديثَه:

وازدادَ الأمرُ صعوبةً عندما أعطونا أغصاناً رفيعةً من شجر التوتِ وطلبوا منا ضربَ بعضِنا البعضَ.. تصوَّروا.. بالتناوب كلُّ معلمٍ يضربُ زميلَه ومديرَهُ بالعنفِ الذي يُرْضي الجنود بينما هم يضحكون ويُقَهْقِهون لمقاهَرتِنا واذلالِنا..

قال سعيد:

ـ بسيطة يا استاذُ.. الضربُ والاهانةُ غيرُ مهمٍ يا استاذُ.. أم كُنَّا نحسبُ أنهَّم سيحتلون بلادَنا ويحبوننا ويدللوننا.. لكنَّ المشكلةَ بالنسبةِ لي كانت أبي.. أبي الذي لم يتدخلْ يوماً في السياسةِ.. أبي الذي كان كلُّ هَمِهِ تأمينَ لقمةِ العيشِ لأمي ولأسرتنا. لن أنسى منظَره وهو يبكي كالنساءِ، عندما اقتحَم المستوطنون محطَّةَ الوَقودِ التي كان يملكُها، وأحرقَوها عن بَكرَةِ أبيها، أبي لم يستطعْ يومَها ان يتحرك عن كرسيهِ.. وهو لا يزالُ الى اليوم مشلولاً لا يتحركُ من هول المصيبةِ..

---

(١) حادث حقيقي تم في مدرسة للذكور في مخيم الدهيشة قام به الجنود ضد الاساتذة والمدير عام ١٩٨٣.

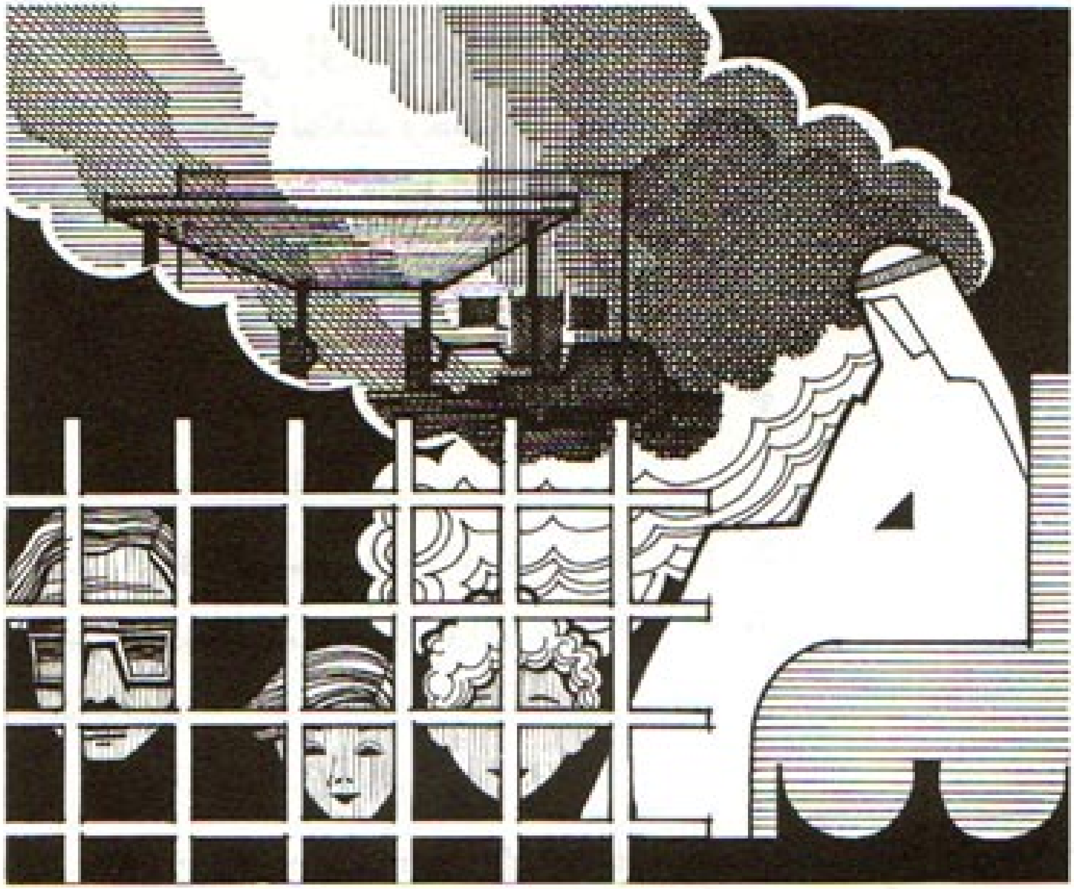

* ٤ *

مضت ايامُ وأسابيعُ، والشبابُ الثلاثةُ في زنزانتِهم لا يرَون أحداً من أقاربهم ولا يحضرُ لزيارتهم أحدٌ.. لم يسمعُوا من أخبارِ المخيمِ شيئاً.. وابتدَأ القلقُ يساورُ الاستاذَ وصاحبيهِ، فالاستاذُ أصبحَ قلِقاً على زوجتِهِ وولديهِ.. وسعيدٌ حيرَتُهُ وقلقهُ اكبرُ فهو يعلَمُ أنَّ والدتَه لا بدَّ من أنْ تعملَ المستحيلَ لتراهُ، فهل جرىَ لاختِهِ سناء أمرٌ ما منعَ والدته من الحضورِ لزيارتهِ؟ أم إنَّ أباهُ قد ازدادتَ صحتُه سوءاً عن قبل! وعيسى كان هو الآخرُ قلِقاً على أهلِهِ ووالدِه ودكانِ والدِه من ناحيةٍ، وعلى دراسته من ناحيةٍ اخرى.. فالأيامُ تَمرُّ وامتحانُ التوجيهي قد اقترب وهو هنا لا يدرس ولا يحمل كتاباً، كلُّ الذي يعرفهُ عن الحصصِ هو حصةُ التعذيب التي يتعرضون لها كلَّ يومٍ ساعةً او ساعتين او ثلاث، في الصبحِ أو في الليلِ.. لا يهُمُّ.. ويعودون بعدَها منْهكين متعَبين يحلَمون بأمرٍ واحدٍ فقط.. بندقيةٍ في ايديهم.. ولكن كَيف؟؟ ومَتى؟؟ وأين؟؟ وممن؟؟ هذا ما لم يحدِّدْهُ الحُلْمُ بعدُ..

وذاتَ يومٍ إذ بالحارسِ ينادي على سعيدٍ: أنَّ له زيارةً!! وهبَّ الثلاثةُ واقفين يتسابقون لمقابلةِ الزائرَ فها هو ذا أحدٌ قادمٌ من هناك.. من المخيمِ.. من عندِ الأهلِ..

كانت زيارةً سريعةً ولكنَّها مشحونةٌ بالعواطفِ والحب والأملِ.. لم يكن الحديثُ يتعدى السؤالَ والجوابَ الواحدَ.. كيف حالُ ابي؟ بخيرٍ.. كَيفَ حالُ اختي سناء؟ بخيرٍ.. كيفَ حالُ زوجتي فاطمةَ..؟ بخيرٍ.. الأولادُ؟ بخيرٍ؟ المدرسَةُ؟ فلان.. وفلان.. كانوا يريدون في عشرِ دقائقَ أو أقلَّ أن يطمئِنوا على كلِّ انسانٍ ومكانٍ وحجرٍ في مخيم الدهيشةِ.. بينما

كانت أمُّ سعيدٍ تريدُ هي الاخرى أن تطمئنَّ عليهِم، وعلى روحِهم المعنويةِ وأوضاعِهم هنا في السجنِ.

وأقبلَ الحارسُ يُنهي المقابلةَ التي بدَت لهم عشرَ ثوانٍ لا غير، فبعدَ طولِ البعادِ يصبحُ اللقاءُ قصيراً مهمَا طالَ.. رَجت أمُّ سعيدٍ الحارسَ أن يتركَها خمسَ دقائقَ اخرى، استعطفته، بكَت أمامَهُ.. ولكنَّه اشار اليها بطرفِ بندقيته اللعينة.. فانسحبت بهدوء..

بعدَ حوالي ستةِ اشهر دخل آمرُ السجنِ يُعلِنُ لهؤلاءِ الثلاثةِ الافراجَ عنهم بكفالةٍ ماليةٍ مقدرةٍ بعشرةِ آلاف «شيكل» اذا عادَ أحدُهم لمضايقةِ الجنودِ الاسرائيليين أو القيامِ بالمظاهراتِ، أو حتى التحدُّثِ ضدَ الاحتلالِ الاسرائيلي مهما كانت الاسباب..

نظر كلُّ فردٍ الى زميلِه نظرةً عميقةً، ونظَروا الى المسدَّساتِ والبنادقِ التي يحملُها الحرسُ والشرطَةُ..!!

استقبلَت الأمهاتُ وأهلُ المُخَيَّمِ أبناءَها الثلاثةَ بالزغاريدِ والأغاني والأهازيج.. زوجة الاستاذِ خالدٍ وقفَت مع ولديْها اللذين لبسا ملابسَ العيدِ واخذت ترشُ الوردَ وماءَ الوردِ على جموعِ الناس، وأمُّ سعيدٍ اخذت توزعُ البيبسي كولا والشَّرابَ على اهلِ المخيمِ فرَحاً بعودةِ ابنِها.. واقبلت سناءُ تمشي على عكازَيْن وتعانِقُ أخاها سعيداً.. اما أمُّ عيسى عبد ربه فقد وقفَت منكسرةَ الخاطرِ في آخرِ الجموعِ وكأنَّها تخجلُ من السَلامِ على ابنِها.

وعجب عيسى من موقف أمّه.. كأنها لا تهتمُ به أكانَ في السّجن أم كانَ خارجَه.. لماذا يا ترى؟ وتساءلَ في نفسِه.. أينَ والدي.. لا اكادُ أراهُ.. أتُراه هو الآخرُ لا يَهُمّهُ مِنَ أمري شيء ..؟؟

نظر عيسى في كلِّ اتجاهٍ يفتشُ عن أبيهِ.. حاولَ أن يَنظرَ إلى داخلِ الدُكان، لعلّه يراه في دكانِه يكيلُ الرُزَ او السمنَ لاحدِ الزبائنِ.. ولكن لم يجدْهُ أيضاً.. وعاد ينظرُ الى أمّه الواقفةِ بكلِّ انكسار وحزنٍ قربَ الحائطِ يسألُها بعينيهِ عن أبيهِ ولماذا لا يستقبلُه.. ولم يجدْ جواباً بل وجدَ دموعاً غزيرةً تملأ الخدين..

اقبلت الأمُ تحتضنُ ابنَها وتجهَشُ بالبكاءِ.. وأوقفَت زوجةُ الاستاذِ خالدِ رشَّ الوردِ، وتوقَّفَت الأيدي عن تناولِ شرابِ البِبسي، والتفَّ الجيرانُ حولَ عيسى وامِّ عيسى وهي تقول:

والِدُك يا بُنَيَّ استشهدَ، قتلَه اليهودُ هنا على بابِ دكانهِ.. اطلَقوا عليه الرَّصاصَ من بنادقِهم فسقَط دونَ حِراك..

كان موقفاً مؤلماً وحزيناً ولكنَّ سكّانَ المخيمِ وقفوا يواسون الأمَّ والابنَ.

ـ يا أمَّ عيسى «من خَلَّف ما مات»، و «مَنْ ماتَ دون مالِه فهو شهيدٌ».. وابو عيسى خلَّف عيسى زينَةَ الشباب، وقد ماتَ دونَ مالِه فهو شهيدٌ، والأعمارُ بيدِ الله فلا تبتئسي والبركةُ في عيسى..

تسلَّمَ عيسى الدُكانَ مكانَ والدِه العزيز.. وانقَطَع عن الدراسةِ واصدقاءِ المدرسة. ولكنَّه كان يلتقي باستمرارٍ مع زميلين اثنين فقط هما الاستاذُ خالدٌ وسعيد عبدالكريم.

❊ ● ❊

مرت أيامٌ وأسابيعُ جاء بعدَها الاستاذُ خالدٌ مسرعاً الى دكّانِ عيسى عبد ربه ومعه سعيد عبدالكريم.. دخل الاثنان وأقبلَ عليهما عيسى يرى في عينيهما خبراً سعيداً لا يستطيعان كِتمانَه..

قال الاستاذ خالدٌ:

لقد وصلتُ الى طرفِ الخيطِ.. اعتقدُ أنّنا سنصل..

هتف عيسى:

ـ كيف؟؟ ومتى؟؟

قال الاستاذُ خالدٌ بهدوءٍ وبصوتٍ خفيض:

ـ في القدس.. من القدس، من احدِ حرّاسِ معهدٍ دينيٍ هناك.

قال عيسى:
- اتعني أنّ الحارسَ سيعطينا بندقيةً؟؟
- نعم.. سيبيعَنا إيّاها، يبيعُ لَنا البندقيةَ..
- والثمن؟
- لم نتفقْ بعدُ ولكنّه ما بينَ
٥٠٠ _ ١٠٠٠ دولار امريكي..

واطبَق السُّكون على الشبانِ الثلاثةِ، كلٌّ يفكرُ من أينَ سيحصُلُ على هذا المبلغ الضخم، ولكنَّها فرصةُ العمر.. فرصةٌ انتظروها اشهراً واشهراً، حُلُمٌ عاشَوا على أملِ تحقيقِهِ أيّامَ الذُّلِ العصيبةِ داخلَ السِّجن وخارجَهُ.. الفُ دولار ويحصلونَ على بندقيةٍ من جندي اسرائيلي؟؟!! يا مرحَى.. يا مرحَى.. اقترب الأملُ، فرصةٌ لا تتكرَّرُ في العمر مرَّتين.المهمُ تدبيرُ المبلغ..

قَام عيسى الى درجِ النقودِ يَعُدُّها ويتحَسَّسُها.. حوالي أربعين ديناراً أردنياً.. وبالدولار تعادلُ مئةَ دولار وتزيدُ قليلاً.. بدايةٌ لا بأسَ بها.. اعطى الاستاذ خالداً ثلاثين ديناراً وأبقى العشرةَ في الصندوقِ.. قال:

- هذه هي البدايةُ.. ابدأ انتَ بجَمْعِ المبلَغ وكلَّما توفَّر لدَيْنا مبلغٌ سنعطيكَ ايّاهُ لتوفيره...

وفيما هم يتحدثون، اذ بأصواتِ عجلاتِ السياراتِ العسكريةِ تملأُ الأفقَ.. وأزيزُ الرَّصاص يخرِقُ الآذانَ، واحتارَ الثلاثةُ بأمرهِم ولم يدَروا هل يخرجون أم يبقون داخلَ الدكان!

في لحظاتٍ انتشَرت السياراتُ العسكريةُ في شوارعِ المخَيّم، وانتشَر الجنودُ الاسرائيليون في كلِّ دكانٍ وبيتٍ ومدرسةٍ على طرَفَي الشارع، واقتحَم عشرةُ جنودٍ دكّانَ عيسى عبد ربه ورمَوا بسعيدٍ خارجَ الدكان، ثم ضرَبوا الاستاذَ خالداً على وجهه ورمَوه هو الآخرَ.. أما عيسى الذي كان لا يزالُ يقفُ قربَ الدُّرجِ ويمسِكُ الدنانيرَ العشرةَ فلقد بادرَه الجنديُ قائلاً:

- وأنت.. ماذا تفعلُ هناك؟
- أنا صاحبُ الدُّكان!
- عظيمٌ.. عظيمٌ.. كم معك من النقودِ داخلَ الدرج؟؟ هاتها.. هات النقودَ كلَّها!

ثم التفَت الى كيسِ الرُّز، وبطرفِ بندقيتهِ سكبَ الكيسَ على الأرضِ وقلبَ كلَّ ما فيهِ، ولمّا كان بالقربِ منهُ كرتوناتُ البيضِ فلقَدْ قَلَبَها هي الاخرى إلى الأرضِ وفوقَ الرز، وصرخ قائلاً:

نقولُ لكم اتركوا هذا المَخيَّم.. اتركوه.. وارحلوا عنهُ وعنّا.. هيّا اغلقْ دكانَك وانصرفْ الى بيتك!

تحرَّك عيسى.. وأغلَق بابَ دكانِه.. ومشى الى الشارعِ ولم يكد يبتعدُ بضعةَ امتار حتى سمعَ انفجاراً كبيراً.. التفتَ الى الوراءِ.. وإذ باحدى السياراتِ العسكريةِ تلتهمها النيرانُ التهاماً..!!

أكملَ عيسى سيرَه بكلِّ هدوءٍ كأنما لا يعنيهِ الأمر في شيء.. وصل الى بيتِهِ وجلسَ الى أمِّهِ بكلِّ برودٍ يسألُها:

- هل عندك ما يكفيكِ من الأكلِ والشربِ لمدةِ اسبوعٍ او اسبوعين؟
- لماذا؟ ماذا حصل؟ ما هذه الأصوات؟!
- لا شيء.. لا شيء.. المهمُ أنَّهم أخذوا مني عشرة دنانيرَ. الاوغادُ، ليتني.. ليتَني..

ثمَّ صمت لا يريدُ ان يقولَ ليتني اعطيتها للأستاذِ لمشروعِنا المنتظر..

قالت الأمُ: ماذا حصَل.. اخبرني.. او أذهبُ بنفسي لأرى ماذا حَصل..

قال عيسى:

- لا تذهَبي.. عشرُ سياراتٍ او أكثر.. خمسونَ جندياً او أكثر.. انتشروا كالقطط المستأسدة يحملون بنادقَهم واسلحتَهم..

سكتَ برهةً ثم عاودَ القولَ وكأنَّه يتخيلُ المنظرَ ثانيةً.

- ولكنَّ أحدَ الشبابِ العربِ كان مُجهِّزاً لهم مفاجأةً رائعةً.. لقد فاجأهم بزجاجة ببسي لذيذة..!!

انتفضت الأمُ وابتعدت عن عيسى قائلة:

- ماذا؟؟ هل تعني أنَّ أحداً قدم لهم الببسي؟! تعاونَ معَهُم؟؟

وهمسَ عيسى في أذنِ أمِّه:

- لا.. زجاجةُ ببسي ساخنةٌ، لا باردةٌ. لا أدري من أينَ وكيفَ رماها، فقد كنت مشغولاً بنفسي وبدكاني، وفجأةً سمعتُ الإنفجارَ ورأيتُ الجنودَ جميعاً يتراكضون.. والله كان منظرُهم مسلياً جدا.. سيارتهُم العسكريةُ تحترقُ وهم يتراكضون لمعرفةِ الجاني وإبعادِ السياراتِ الأخرى.. كانت زجاجةً لذيذةً حقاً.. فيها كازٌ ونارٌ..

وضعت أمُّ عيسى يديْها على خدّيْها وقالت:

- مصيبة.. مَن سيعتقلونَ الآن يا تُرى.. ومن سيأخذونَ الى السجونِ؟

واحتضنَت ابنَها عيسى كأنَّها تريدُ ان تحميَهُ.. كانت لا تريدُ أن يأخذوهُ الى السِّجْنِ مرَّة اخرى، فهو الآن ربُّ العائلةِ..

مرّت الايامُ ومنعُ التجولِ مفروضٌ على المخَيّمِ بشكلٍ حازمٍ لا يخرجُ من بيتِهِ أحدٌ ولا يدخلُ من ابواب المخَيّمِ أحدٌ.. وكانَ عيسى يلبسُ كلَّ صباحٍ ويجلسُ في ساحةِ الدار لا يعملُ شيئاً.. ولذلك وبعد هدوءِ الوضعِ قليلاً قرّرَ الذهابَ الى أقربِ بيتٍ من اصدقائِه، بيتِ سعيدٍ لرؤيتِه والتحدثِ اليه..

دق عيسى بابَ الصاجِ بيدِهِ فخرجَت سناءُ.. قال عيسى في نفسه:

يا صباحَ الخيرِ.. ما أجملَ هذا الصَّباحَ..

- صباحُ الخيرِ يا أخت سناء.. هل سعيدٌ هنا؟؟

- ألم تدرِ أنَّهم قبَضوا عليه وعلى أمي أيضاً؟؟ الم تعلمْ أنَّه منذُ يوم إلقاء القنبلةِ الحارقةِ على السياراتِ العسكريةِ جمَعوا حوالي ستة وثلاثين شاباً. بيوتُهم حولَ المنطقةِ ومن بينهِم أخي وأمي..

واختنق صوتُ سناء بالعبراتِ.. وحاولَتْ أن تخفيَ ضعفَها لغيابِ أمِّها وأخيها عن الدار.

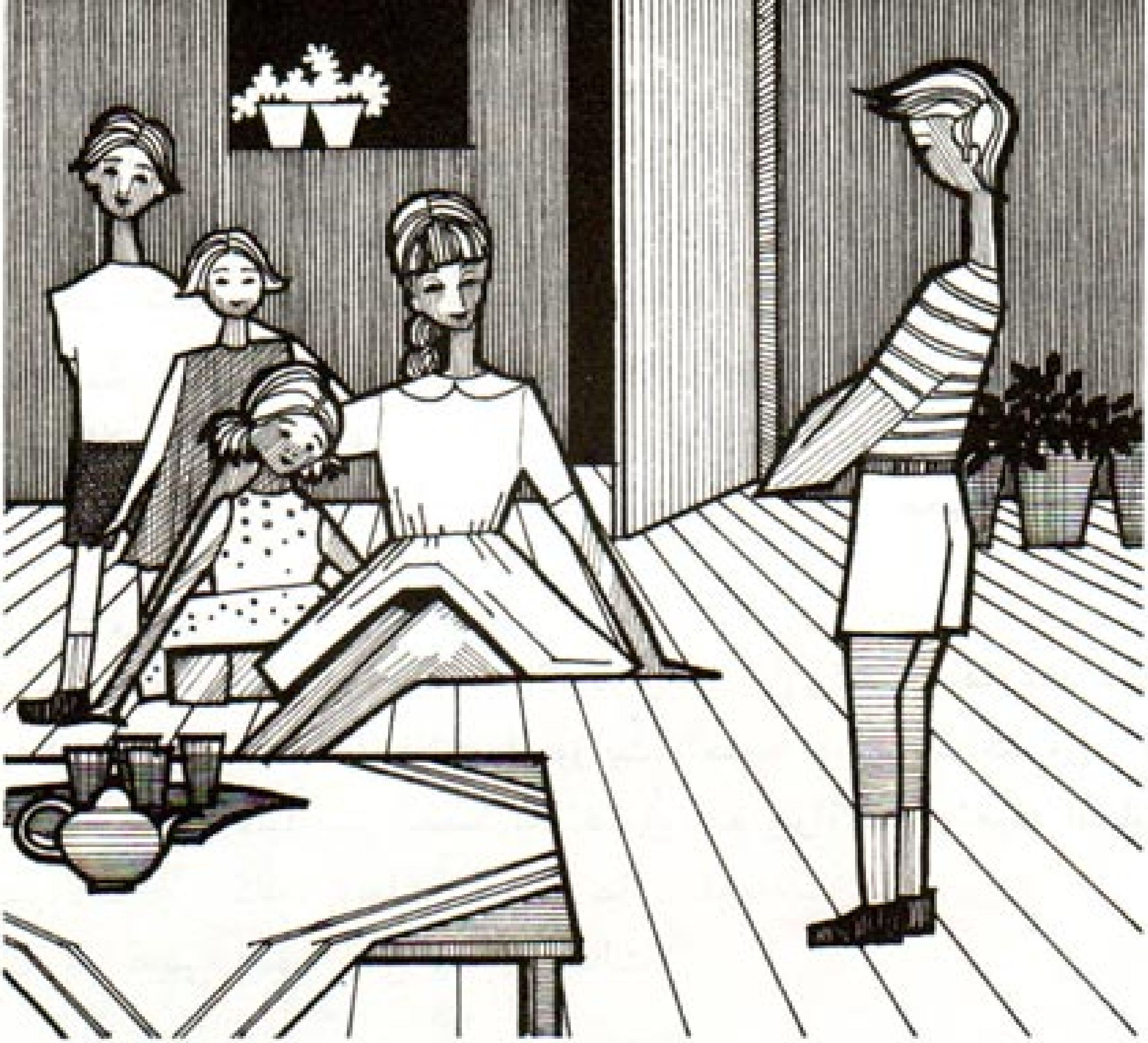

قالَ عيسى بلهفةٍ:

ـ ومَنْ يساعدُكِ في حملِ مسؤوليةِ والدكِ واخوتِك..؟

وزادَت العبراتُ، وانهمرَت الدموعُ من عيني سناء.. وقالَتْ: أنا لوَحدْي..

انسحَب عيسى عائداً الى والِدته.. سارَ في الطريقِ يفكّرُ في هذا الزَّمَنِ الذي يخلقُ من الأطفالِ رجالاً ونساءً يتحملون المسؤولياتِ الجسيمةَ.. هو وقَدْ أصبحَ مسؤولاً عن عائلتِه أمّه واخوتِه بعد وفاةِ والدهِ.. وسناءُ وقد أصبحَت مسؤولةً عن عائلتِها ـ والدها العاجز واخوتِها الصِّغارِ، عدا عن مشكلتِها الكبرى في غيابِ والدتِها وأخيها.. ما أروعَها وما أشطرَها.

* ٦ *

حملَت امُ عيسى طنجرَة الرُز والعدسِ «المجدرَة» وأخذَتْها الى بيتِ سناء.. كانت سناءُ تجلسُ مع اخوتِها الصِّغارِ في ساحةِ الدّار فلما دخلَت امُ عيسى تحمِلُ القِدْرَ «الطنجرة» قام الجميعُ نَحْوَها وقالت سناءُ:

ـ خالتي أمّ عيسى؟! كيفَ وصلتِ الى هُنا؟! ولِماذا؟!

قالَت امُ عيسى:

ـ من بينِ البيوتِ.. من بيتٍ لبيتٍ ومن سور الى سور فلم يكنْ من الممكنِ ان اتركَكُم

دونَ أن أطمَئنَّ عليكُم بعدَ أنْ علمتُ خبرَ اعتقالِ أمكُم وأخيكم..
وارتمَت سناءُ على صدْرِ جارَتِها أمِّ عيسى، واحتضنَت أمُّ عيسى سناء والأولادَ وقالَت:
ـ لا تخافوا فأنتم أبنائي ولَن أترُكَكم..

ضجت سناءُ بصوتٍ تملؤُه العبرات وقالَت:

ـ لماذا حكَم اللهُ علَينا بهذا العذابِ يا خالَتي أمَّ عيسى؟ لماذا نبَقى هنا لا نُحِسُّ بالأمنِ والاستقرارِ يوماً واحداً. منذ صَحَوْنا على هذهِ الدنيا ونحنُ نتعرضُ لمضايقاتِ اليهودِ،هل تذكرينَ محطَّةَ الوَقودِ التي كان يملِكُها والدي؟ حرَقوها وحرَقوا معَها كلَّ آمالِه واحلامِه وتَركوه لا هو بالحَيِّ ولا بالميتِ.. وأنا.. كدتُ أصابُ وأقتَلُ برصاصِهم بينَما كنتُ في رحلةٍ عاديةٍ يقومُ بها كلُّ اطفالِ العالَم ..وأخي سعيد امضَى ايَّامَ السجنِ الأولى وعادَ اليومَ للاعتقالِ هو وأمي دونَ جُرمٍ لم نتدخَّلْ ولم نرمِ الزجاجَةَ الحارقةَ.

وبينَما هي تتحدَّثُ إذ بأصواتٍ تَتَعالى من الخارجِ ! اصواتٍ غيرِ مفهومَةٍ! تبدو وكأنَّها تقترِبُ من بيتِ سناء..
أطَلَّ الجميعُ ليرَوا مَنْ الذي يَخْتَرِقُ قانونَ منعِ التَّجولِ ويتحركُ في الشارعِ وإذ بهِم يَرون العجبَ!! إنَّهم ليسوا من سكَّانِ المخيمِ.. إنهم يهودٌ يضعون على رؤوسِهم الطاقياتِ السُّود ويربّون لِحاهُم، كلُّ لحيةٍ تصلُ الى صدرِ صاحبها، سوداءُ مبيضةٌ.. وكانَ يتقدَّمُهم شخصٌ كريهُ المنظرِ لحيتُه أطولُ لحيةٍ يحملُ رزمةَ اوراقٍ كبيرةٍ يرمي بها ورقةً ورقةً إلى كلِّ بيتٍ وكلِّ «تناكيةٍ» يمرونَ بها.. وقد تَسلَّلَ أخو سناء الصغيرُ الى باحةِ الدار وأخذَ الورقةَ وعادَ بها الى سناء لتقرأها.. وقرأتْ سناءُ بصوتٍ عالٍ :(١)

«إلى لاجئي يافا والرملةِ وسائرِ الأماكنِ في «دولةِ اسرائيلَ».. الى سكّانِ مخيمِ الدّهيشة.. اسمُ الدهيشةِ اشتهرَ في جميعِ انحاءِ البلادِ بالذي يرمي الحجارةَ على اليهود.
يا سكّانَ الدهيشةِ، نحنُ نُناديكم أنْ تقوموا وتَتْركوا هذا المُخَيَّمَ، انهضوا وانتقِلوا الى أماكنَ أخرىَ، وانعزلوا عن المشاغبين القتلةِ والمحرضين والحزبيين.
توجهوا الى السلطاتِ واطلبوا المساعدَةَ لتَسهيل الانتقال.

«اخرُجوا من الدهيشةِ من اجلِ السَّلامِ ومن اجلِ حسنِ الجِوار.. اخرجوا منهُ والا انتَقَمْنا منكم»..

ولمْ تُكمِلْ سناءُ قراءَةَ المنشورِ اليَهوديّ.. بل لم تلحظْ أنَّه يساعِدُها على تحقيقِ ما كانت تتحدثُ عنهُ قبلَ قليلٍ.. الرحيلِ وتركِ هذا المخيمِ بمشاكِلِه ومآسيهِ.. ها هم يقولون لهَا إنَّها وبكُلِّ سهولةٍ تستطيعُ الاتصالَ بالسلطاتِ الاسرائيليةِ وهم سيسهلون لها الانتقالَ الى خارجِ المخَيِّم، الى منطقةٍ أكثرَ أمناً واكثرَ استقراراً.. الى منطقةٍ لا يلاحِقُ ابناؤُها جنودَ الاحتلالِ، ولا يلاحِقُ جنودُ الاحتلالِ ابناءها.. الى منطقةٍ تعودُ بها سناءُ الى طفولَتِها والى مدرَستِها، ويعودُ أبوها الى صحَّتِهِ وعافيَتِه ويعودُ سعيدُ وتحتَضنُها أمُّها كلَّ ليلةٍ قبلَ النومِ وعندَ الصَّباحِ..

سارَعَت أمُّ عيسى وأخذَت الورقةَ المنشورَ من يدِ سناء ومزَّقَتها إرباً إرباً وانطلقَت الى الخارجِ ترمي بالقُصاصاتِ على رؤوسِ موزعيه.. بل إنَّها رأت العشراتِ من الجيران المحيطين، يرمون بالأوراق على مرسليها.. بل وفي جُنون أيضاً كانت عشراتُ الحجارة تُرْمَى على رؤوس هؤلاء..

عادت أمُّ عيسى الى بيتِها وأخذَت تحدِّثُ ابنَها قائلةً:

ـ يا بني أنا خائفةٌ على سناء كثيراً.. لم يعُدْ حالُها يُعجبُني، لقَدْ أثَّرَ علَيها سجنُ والدِها وأخيها كثيراً جدا.. وكلَّ يوم تنتظرُ خروجَهم من السِّجنِ.. وتقفُ على باب الدارِ ساعاتٍ تنتظرُهم هي واخوتُها الصغارُ.. وهؤلاءِ الصِّغارُ مساكينَ لا يستطيعون تَخَطّي ساحةِ الدارِ.

أطرقَ عيسى وهو يفكرُ ثم قالَ:

ـ ربُنا يُهوِّنُها علَيْنا كلَّنا يا أمي.. كلُّ أهل المخيم بهذا الحال، ولكنْ إمّا أنْ نتحملَ وإمَّا

(١) هذا نص حرفي لبعض المناشير التي يوزعها المستوطنون المرابطون امام مداخل المخيم لحث السكان على ترك المخيم.

أن نرحلَ، وهذا ما يريدهُ اليهودُ من جنود وشرطة ومستوطنين، أن نرحلَ، فهل تظنين أنَّ أحداً سيرحلُ من هذا المكان؟!

أجابت الأمُّ بسرعةٍ:

ـ لا يمكنُ أنْ نرحلَ مَرةً أخرى.. إلاّ اذا كانَ لبيوتِنا التي تركْناها في مدننا وقرانا. كلُّ اهلِ المخيمِ مصممون على ذلكَ نحنُ صامدون بوجودِنا حقاً.. نحن شوكةٌ في جنبهم.. إذن نحنُ ابطالٌ.. لا يوجدُ معنا سلاحٌ، ولكنَّ سلاحَنا هو ايمانُنا بأنَّ فلسطينَ ارضُ العربِ مهما طالَ الاحتلالُ. وسنعملُ على تحقيقِ هذا الإيمان.

جلس عيسى مفكراً بأمرين اثنينِ معاً.. البندقيةِ.. وسناء.. كيفَ يحصلُ على بندقيةٍ ينتقِمُ بها من هؤلاءِ المستوطنين الذينَ يتجولون في أرضِ المخيمِ وعلى أبوابهِ. وسناء التي بَدَأ يميلُ إليها، كيفَ يدافعُ عَنها.. كيفَ يقفُ معَها فلا تَضْعُفُ أمامَ مشاكلَ وضغوطِ الاسرائيليين؟ إنها شقيقَةُ زميلِه ورفيقِهِ في السّجنِ فَهلْ يتخَلّى عنَها!

مرَّت ايامٌ وعيسى يذهبُ مع أمِّهِ يومياً لزيارةِ سناء واخوتها، يقفُ معَ اخوتِها في ساحةِ الدار بينَما تدخلُ والدتُه عندها الى الداخلِ تساعدُها في الطَّبخِ أو الأعمالِ المنزليةِ او التطريزِ.. كانت سناءُ فتاةً جميلةً، شعرُها ضفيرةٌ طويلةٌ ترْميها خَلْفَ ظهرها، عيناها عسليتانِ واسعتانِ.. نحيلةُ الخصر، معتدلةَ القامةِ، تلبسُ ملابسَ متواضعةً كَسكانِ اهلِ المُخَيَّم، ولكنَّها نظيفةٌ ومرتبةٌ.. كانَت تصنعُ الشّايَ بالنَّعناع، تقفُ في ساحةِ الدار وتنادي على أخِيها الأصغرَ، لتعطَيه إبريقَ الشَّايِ مع الكاسات وكان عيسى يأخذُ منها الشاي وينظرُ إليها.. كانت سناءُ فتاةً خجولةً، ولكنَّها كانت تصنعُ اطيبَ شايٍ يشربُه عيسى في حياتِه.

بعد عشرينَ يوماً انتهى منعُ التَّجولِ وخرجَ سعيدُ وأمُّه من السجْنِ.. وجاء كلُّ الجيرانِ وعيسى والاستاذُ خالد يهنئونهم بالخروجِ.. وصنعَت سناءُ أشهى شايٍ وقدَّمتهُ وهي فرحةٌ سعيدةُ.. وكان عيسى أيضاً مسروراً برؤيةِ سناء، والسعادةُ تفيضُ منَ وجهها حتى إنَّهُ أقبلَ يسلِّمُ عَليَها يداً بيد فلم يدْرِ حينَها إنْ كانَ هناك ألطفُ وأرقُّ من هذهِ اليدِ في العالمِ كلِّه!!

وما إنْ خرَجَ المهنئون كلُّهم حتى جلَس عيسى مع سعيدٍ والاستاذِ خالدٍ على انفرادٍ يكملون ما انقطع من حديثٍ في المرّةِ الماضيةِ..

قالَ سعيدُ، أخبروني ماذا تمَّ معكم؟ طمئنوني هل حصلْتُم في غِيابي على البندقية!!

قال الاستاذُ خالدُ:

ـ على مهلِك يا سعيدُ.. فلقَدْ كنَا قد اتَّفقْنا أنْ نقابلَ الحارسَ الإسرائيليَ في القدس لكنَّ منعَ التَّجولِ المفروضَ على المخيمِ عطَّلَ علينا ذلك اللقاء.

قال سعيدٌ بغضب:

ـ ولماذا نقابلُ الحارسَ الاسرائيليَ لماذا؟ الا يمكنُ الحصولُ على البندقيةِ دون أن نجلسَ معَه ونحدِّثَهُ ويحدِّثَنا؟ أنا لا أطيقُ الحديثَ مع أيٍّ منهم بعدَ كلِّ الذي فَعلوه بنا..؟

قال الاستاذُ خالدٌ بهدوءٍ وحزم:

ـ ما تقولُه مفهومٌ، ولكنَّ الضروراتِ تُبيحُ المحظوراتِ.. فدَعْكَ من هذا الكلامِ واستعدْ غداً للذَّهاب الى القدس.

* ٧ *

في اليوم التالي كانَ الشَّبابُ الثلاثةُ يركَبون الحافلةَ المتَّجهةَ منَ المخيَّمِ الى القدس.. مرَّت الحافلةُ امامَ المستوطنين الاسرائيليين الذين يُعَسكِرون ويجلِسون امامَ بابِ المخَيَّمِ لارهابِ اهلِه.. وأغمضَ سعيدٌ عينَيهْ لا يريدُ أنْ يراهم. ثمَّ مرَّت الحافلةُ على مقبَرةِ اهلِ المخيمِ في أحدِ الجبالِ القريبةِ، وترحَّمَ الشبابُ على موتاهُم.. ثم مرّوا امامَ منطقةٍ حُرجيَّةٍ وكأنها منتزهٌ عام قريبٌ من مدينةِ بيتِ لحم، كان بعضُ اليهودِ يتمشون في المنتزه.. وكأنّه منتزه عشاقٍ «لهؤلاء المستوطنين» الذين يسكنون قُرْبَ بيت لحم.. وكأنَّ الدارَ دارُهم والأرضَ أرضُهم! ولمّا وصلَت الحافلةُ الى القدسِ نزل الاستاذُ خالدٌ اولاً ثم تَبِعَهُ عيسى ثم سعيدٌ.. واتَّجهوا فوراً إلى المقهى الصغيرِ. جلس الثلاثةُ دونَ حديثٍ، وبَعد لحظاتٍ قال خالدٌ مشيراً الى العمارةِ المقابلةِ للمقهَى:

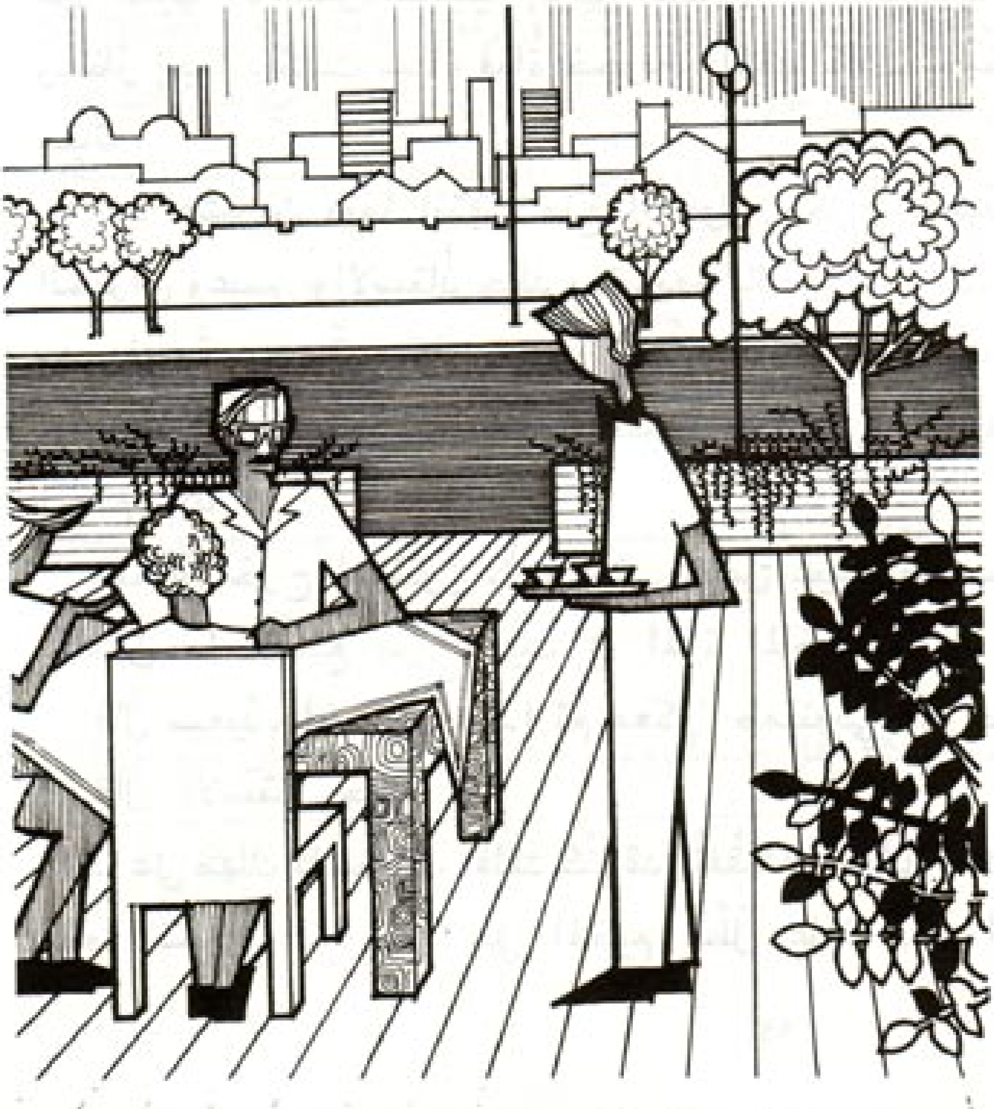

ـ هذا هو المعهدُ الدينيُ الذي حدثتكُم عنهُ.. وهذا هو الحارسُ الذي سنأخذُ منهُ البندقيةَ.. تلكَ التي يحملُها على ما أعتقدُ.

نظر سعيدٌ وعيسى الى البندقيةِ في يد الحارسِ وهوَى قلباهما بين ضلوعِهما، فهل حقاً ستكونُ من نصيبيهما؟!

كانَ الحارسُ شاباً نحيلاً، تبدو على وَجْهِهِ صفرَةٌ غريبةٌ تحاكي صفرةَ الأمواتِ. ويمشي متباطئا كأنَّ به مَرَضاً. وكان يلبسُ الملابسَ الرَّسميةَ.. الكاكي المرقَّط ويضعُ زناراً عريضاً على خصره، ويصوِّبُ بندقيتَه تجاهَ المارةِ ويدُه على الزِّنادِ وكأنَّه يقومُ بدورٍ تمثيلي في فيلمٍ، ينظرُ الى ساعتِه كلَّ لحظةٍ وكأنَّه ينتظرُ أحداً..

طلبَ الاستاذُ خالدُ ثلاثةَ فناجينَ من القهوةِ (الامريكية) باللغةِ العبريةِ فهو يتقنُها كأحد ابنائها!!

بينما ظلَّ رفيقاه ساكنَيْنِ لا ينبسان ببنتِ شفَه.. وكانَ الاستاذُ خالدُ يتكلمُ العبريةَ كلَّما حضر النادلُ ـ صبيُ القهوة ـ حتى لا يشكَّ بأمرهِم احدٌ.

بعد عشرِ دقائقَ تقريباً أزفَ موعُد تبديلِ الحرسِ على مبنى المعهدِ، وحضر حارسٌ اسرائيليٌ آخَرُ فانسحبَ الأولُ وأقبلَ على المقهى، واتَّجهَ فوراً الى طاولةِ الشباب الثلاثة!!

بدون كلامٍ أو سلامٍ جلس الحارسُ الاسرائيليُ على الطاولةِ وطلب فنجاناً من القهوةِ الامريكيةِ! قال سعيدٌ في نفسه:

هذا أفضلُ.. لا سلامَ ولا كلامَ ولا تحياتٍ.. واللهِ لولا انني سأحصلُ منه على البندقيةِ لما رضيت أن اقعدَ يوماً مع سارقِ أرضي وقاتل شعبي على طاولةٍ واحدةٍ أشربُ معه فنجاناً من القهوةِ.!!

وقطعَ الصمتَ صوتُ الاستاذِ خالدٍ يتحدثُ بالعبرية:

ـ متىَ الاستلامُ والتسليمُ؟؟ قال الحارس:

ـ الاستلامُ اولاً.. آخذُ ألفَ دولار ثمَّ أسلمُكم البندقيةَ.

ـ ونوعُها؟!

ـ حسبَ ما تريدُ.. عندي بنادقُ اسرائيليةُ الصنع (عوزي أو جليل) أو أمريكيةُ الصنع 16 - M فماذا تريدون..؟

والتفتَ الاستاذُ خالدٌ الى رفيقيه يترجمُ لهُما ويستطلِعُ رأيَهُمَا قالَ سعيدٌ:

ـ البندقيةَ الامريكيةَ.. نعَمْ فقدَ يكونُ أفضلَ لي نفسياً أنْ احملَ سلاحاً امريكيَ الصنعِ من أنْ احملَ سلاحاً اسرائيليَ الصنعِ، أنا لا أتحملُ التعاملَ معَهم بأيِّ من صناعاتِهم أو انتاجِهم فكيفَ بسلاحِهم؟!

ضحِكَ عيسى ضحكةً ميتةً وقالَ:

- يا أخي سعيدُ، ما الفرقُ بينَ امريكي واسرائيليٍّ؟؟ كلُّه سلاحٌ.. وكلُّه يُستعملُ ضدَّنا وضدَّ أهلِنا.. ثم إنَّ هذا ليسَ وقتَ شرحِ فلسفتِكَ وشعورِكَ النفسيِّ، نحنُ في وادٍ وأنتَ في وادٍ آخر!!

قالَ الاستاذُ خالدٌ للحارسِ بالعبرية:

- نفضلُ البندقيةَ الامريكيةَ (M 16) ولكنَّ المبلغَ الف دولارٍ كبيرٌ جداً.. خمسمائةٌ تكفي..

قالَ الاستاذُ هذهِ الملاحظةَ ولم يكُنْ يتوقَّعُ أن يتراجعَ الحارسُ عن سعرِه بهذهِ السرعةِ.. ظن أنَّه سيفاوضُه ثمَّ يصِلانِ الى سعرٍ وسطٍ بينَ الألفِ والخمسائةِ.. ولكنَّه دُهشَ عندَما سمعَه يقولُ بسرعةٍ:

- اتفقنا.. خمسمائةُ دولارٍ مقابلَ البندقيةِ.. واللقاءُ في الشارعِ الرئيسيِ في الشيخ جراح، الشارعِ الذي يمتدُّ من القدسِ الى رامَ الله.. هل تعرفُه؟؟

صمتَ الأستاذُ خالدٌ هنيهةً وهو يقولُ لِنَفسِه:

- هل أعرفُه؟! ألم أمشِ فيه عشراتِ المراتِ مشياً على الأقدامِ ومئاتِ المرّاتِ بالحافلةِ أو السيارةِ؟ ألم تكن تلكَ أرضَنا وبيوتَنا؟! هل يظنُّ هذا الأبلَهُ مدمنُ المخدراتِ أنَّهم إذا احتلوا أرضَنا وشوارعَنا ننسى معالِمَها؟

قالَ الإسرائيليُّ: لا تعرفُه؟

أجابَ الأستاذ بسرعة:

- أجل.. أجل.. أعرفُه، بالطَّبْعِ أعرفُه وسأقابلُك في أولِ الطريقِ - مقابلَ مطارِ قلَنْدِيا سابقاً..

- يومَ السبتِ.. الساعةَ الثالثةَ عصراً.. النقودُ مقابلَ البندقيةِ..

وقام الجميع من المقهى بانتظار ذلك السبت..

* ٨ *

صعدَ الأستاذُ والطالبان الى الحافلةِ، عائدَين الى مخيَّمِهم والفرحةُ تملأُ جوانِحَهم فها هو ذا الأملُ الذي طالَما انتظَروه قد لاحَ في الافقِ.. وها هو قابَ قوسَين أو ادنى من تحقيقِ غرضِهم والحصولِ على البندقيةِ.. وهمس الاستاذُ خالدٌ:

-أينَ سنضعُها يا تُرى؟ هل نضعُها في البيتِ عِندي أم عندَك يا عيسى؟؟

قالَ سعيدُ بكلِّ حماس :

ـ بل عندي.. لا اكادُ أصدِّقُ أنَّنا سنحصلُ على واحدةٍ سأتدبَّرُ أمرَها جيداً وسأنظِفُها صباحَ مساء، وأطمئِنُّ عليها كلَّ دقيقةٍ..

قالَ عيسى:

ـ بل أرى أن لا نضعَها عندكُما ولا عندي.. نحتفظُ بها خارجَ البيوت.

وبدَت الدهشةُ على وجوهِ الشابين وهما يتَساءلان:

ـ إذن أين؟؟

قالَ عيسى: هُنا...

كانت الحافِلَةُ تمرُ في تلكَ اللحظةِ قربَ المنطقةِ الجبليَّةِ الحُرجْيةِ التي تمتَدُّ إلى مدينةِ بيتِ لحم، وكانت المغاراتُ تنتشرُ في الجبال هُنا وهُناك.. فأشارَ عيسى الى الغابةِ والمغاراتِ المنتشرةِ فيها قائلاً:

ـ هُنا في أيِّ مغارةٍ من هذه المغاراتِ نخبئُها الى حينِ استعمالِها ثم نعودُ الى وضعِها فيها بعدَ الاستعمال..

بعد ثوانٍ كانت الحافلةُ تمرُ من أمام مقبَرةِ مخيَّمِ الدهيشةِ فأشارَ الاستاذُ خالدُ وكأنه قد وجدَها وقال:

ـ بلْ هُنا.. هُنا المكانُ المناسبُ يا شبابُ.. وهو أكثر أمناً لنا حينَ نضعُها وحينَ نأخذُها،

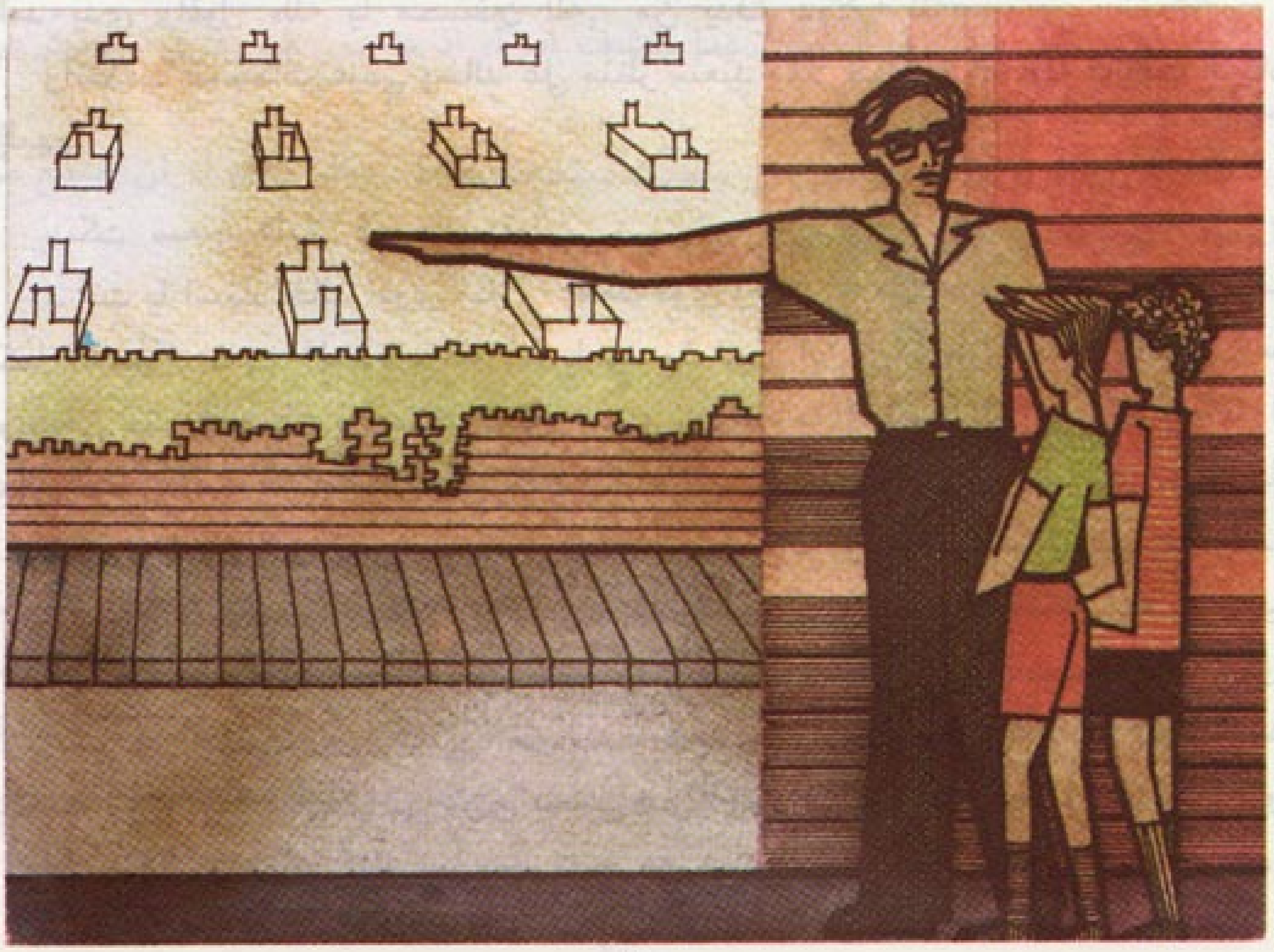

ولا أحدَ يشكُ في فردٍ يأتي لزيارةِ أحدِ أمواتِه! الا تزورُ والدَك يا عيسى باستمرار؟ وأنت يا سعيدُ الا تزورُ اقاربَك الأمواتَ رحمهمَ اللهُ جميعاً؟؟

واتفقَ الثلاثةُ على ما سيكونُ! ولكن المشكلةَ كانت الآنَ في الحصولِ على ثمن البندقيةِ، من أينَ سيوفرون مبلغَ الخمسمائة دولار وكلٌّ منهم يحصلُ على قوتهِ اليَوْمِيِّ بشقِ النفس!

قال عيسى: أمّا بالنسبة للنقودِ فأستطيعُ تأمين ٧٥ دولاراً حالاً كنتُ قد دفعتُها ثمنَ أكياسِ رزٍّ وسكرٍ وبضاعةٍ أوصيتُ علَيها للدّكانِ.. ويمكنني أن ألغيَ الصّفقةَ وأسترجعَ المبلغَ.. هذا عدا عن الذي كنتُ قد وفّرته عندك يا استاذُ من قبلُ..

قالَ الأستاذُ خالدُ:

ـ نعَم وفّرتَ عندي ثلاثينَ ديناراً اردنياً أي ما يعادلُ مئةَ دولار.. وأنا أملكُ مائتي دولار وَفّرتُها خصيصاً لذلكَ، وأستطيعُ أن احصلَ من زوجتي على خَمسينَ دولاراً أيضاً وبذاً يصبح معنا ثلاثمائة وخمسون دولاراً.

صمت سعيدُ، ونظرَ إلى الشابين ثم قال:

ـ أما أنا فأعتقدُ أنني سأشحذ المبلغ.. سأقف شحاذاً في باب المخيمِ أو بابِ الجامعِ أمد يدي واقولُ «لله يا محسنينَ لله.. من يدفعُ دولاراً لله»..

وانطلقَت ضحِكاتُ عيسى وخالدٍ على منظَرِ سعيدٍ وملأ صوتُهم الحافلةَ فالتفتَ الركابُ إليهم.

سكتَ سعيدُ قليلاً ثُمَّ عادَ يقولُ:

ـ أنتَ يا استاذُ خالدُ أقوى منّا.. «عظمُكَ قوي ومدهن»! معكَ مبلغُ مئتي دولار تضعُها كما أتصوّرُكَ تحتَ المِخَدَّةِ.. أما أنا يا حسرةَ فَمِنْ أينَ لي؟؟ طول عمره والدي يتعبُ ويشقىَ حتى استطاعَ أن يمتلكَ محطةَ البَنْزينِ في الطّريقِ الرئيسيِّ إلى المخيم.. ولِعِلْمِكَ لم يكنْ يمتلكُها وَحْدَهُ، لقدْ كانَ شريكاً مع أعمامي.. ثم أصبحَ يتردّدُ عليهِ كلَّ ليلةٍ رجالٌ غرباءُ من المستوطنينَ الذين يسكُنونَ قربَ المُخيمِ ويعيثون فيه فساداً وطَلبوا منْ والدي اقفالَ محطّته نهائياً والتوقُّفَ عن العملِ.. لماذا؟ لأن وجودَ والدي مرفوضٌ ووجودَ مخيمِ الدهيشةِ كلّه مرفوضٌ.. كانَ يقولُ لأمي وهو مهمومٌ وحزينٌ: «لِمَنْ أشكو هَمّي يا تُرى وغريمي هوَ القاضي.. لقَد قالوا في المَثَل قديماً لا يُلامُ الذئبُ في عُدوانِه اذا كانَ الراعي عدوَّ الغنمِ.. ونحنُ الغنمُ والراعي هو ما يسمى «دولةُ اسرائيلَ» والذئبُ هو هؤلاءِ المستوطنون الذين يسكنون حولَ المخَيّم.

كانَ سعيدُ يتحدثُ وكأنَّه يروي قصةَ محطةِ الوقودِ لأولِ مرةٍ، بينما كان الاستاذُ خالدُ وعيسى يسمعانها ربما للمرةِ العشرين.. وعندَما انتبَه سعيدُ لذلك استدرَك نَفْسهُ وقالَ:

- بالنسبةِ لي سوفَ أعملُ على تامينِ المبلغِ خلالَ اليومينِ القادِمين.

قالَ الاستاذُ خالدُ:

- شريطة أنْ لا تقولَ لاحدٍ.

قالَ سعيدُ: طبعاً.. طبعاً.. هذا سرٌ يجبُ أن لا يَطَّلعَ عليهِ أحدُ سِوانا ولكنني سأطلبُ المساعدَة من أمّي وأختي سناء على أساسِ أنَّنا نجمعُ لعائلةِ أحدِ السجناءِ في سجونِ العدو والجيرانِ وأهلِ المخيمِ تعودوا أن يساعدوا السُّجناء وأهلَهم، مهما كان وضعُهم المالي. وسناء أصبح لها خبرة في ذلك!!

فجأةً وحينَ ذكرَ سعيدُ اسمَ اختهِ سناء اضطربَ قلبُ عيسى اضطراباً كبيراً، وأحس به يدق بعنفٍ، حتى خشيَ أن يكونَ ذلك ظاهراً على صدرهِ ووجههِ، بلْ الحقيقةُ أنَّ وجههَ قد اضطربَ واحمَرَّ كالفتاةِ الخَجْلى فأرادَ أن يداريَ ذلك حتى لا يكتشفَ احدٌ أمرَه فقالَ بسرعةٍ:

- وهل تساعُدك سناءُ دوماً في امورك هذه؟

بدَل ان يبتعدَ عيسى في الحديثِ عمَّا يكشفُ أمره، اذ بِه دونَ أن يدري يتحدثُ عن سناء.

لقد كانَ في قَرارةِ نفسِه يَتمَنّى أن يتحدَّث ويتحدثَ عنها.. وكان يحلو لَه ان يسمعَ من أخيها اخبارَها في كلِّ لحظةٍ وكلِّ يوم..

* ٩ *

حملَت سناءُ قِدْرَ النحاسِ بينمَا حملَ سعيدُ طشتَ النُحاسِ وانطلَقا الى السوقِ قالَت سناءُ لأخيها:

ثمنُ هذه القدرِ «الطنجرةِ» والطشتِ النحاسِ سوف يدفَعُ عن عائلةِ صديقِكَ السجينِ الجوعَ والفقرَ لمدةِ شهرٍ أو شَهرين.. فأنا في غيابك وغياب أمي لم أكن اصرفُ اكثرَ من بضعةِ قروشٍ كلَّ يوم.. الضرورياتِ فقط.. ثم إنَّ خالتي أمَّ عيسى كانت لا تتركُنا اطلاقاً.

كانت سناءُ هي الأخرى تريدُ بشكلٍ أو بآخرَ التحرُّش بأخيها علَّهُ يخبرُها خبراً ولو صغيراً عن صديقهِ عيسى الذي لم تَعُدْ تراهُ كثيراً.

أردفَت سناءُ: حقيقةٌ إن الصديقَ وقت الضيقِ يا سعيدُ. وإن وقوفَ عيسى وخالتي أمّ عيسى قربَنا في عزِّ الأزمةِ أثناء غيابك وغياب أمي كانَ يشُدُّ من أزرنا ويُقوي من عزيمتِنا..

سكتَت سناءُ فجأةً وقد خطرَ في بالِها خاطرٌ جريءٌ.. لماذا لا تذهبُ اليومَ مساءً عندَ خالتِها أمّ عيسى تطلبُ منها المساعدةَ لهذهِ العائلةِ التي يجمَعُ لهَا أخوها سعيد بعضَ النقودِ.. انَّ عيسى وأمّه لنْ يتوانيا عن تقديمِ المساعدةِ.. ولِغريبِ الصُّدَفِ التي لا تحصلُ إلّا في القِصَصِ كان عيسى يقفُ أمامَها يحملُ قِدراً من النُّحاسِ ايضاً ويتجهُ الى السّوقِ.. واتّجهَ الثلاثةُ معاً.. كان سعيدُ وعيسى لا يتكلمان معاً لأن كليهما يحملُ نفسَ السِّرِّ في صدرِه.. وكان عيسى وسناءُ لا يتحدثان لأن في صدريهِما نفسَ الأشواقِ والحنينِ.. و.. الحبِ..

* ١٠ *

السبت.. الساعة الثالثة عصراً.. كان الثلاثةُ يقفون دونَ حديثٍ ايضاً على محطةِ الحافلةِ في أولِ طريقِ الشيخِ جرّاح في القدس.. الاستاذُ خالدٌ يحملُ مبلغَ الخمسمائة دولار وعيسى وسعيدٌ يراقبان الطريقَ.. هل يتراجَعُ هذا الصهيونيُ في آخرِ لحظةٍ عن البيعِ؟ هل يترُكُهم ينتظرونَه ولا يحضرُ أبداً؟.. هل كانت مجرَّدَ مزحةٍ أو فخٍ يريدُ أن يوقِعَهُم به.. ولماذا يبيعُ بندقيتَه التي يحرُس بها؟ وماذا سيقولُ لرؤسائِه إذا سُئِلَ عنها، بل لماذا سيبيعُها يا تُرى؟ ولماذا تساهلَ في ثَمنِ البَيْعِ رأساً من الفٍ الى خمسمائة، هل هو مضطَرٌ حقيقةً لقبضِ الثمنِ؟؟

ومن بعيدٍ ظهرَ الشابُ الاسرائيليُ.. يحمل كيساً من النايلون متوسطَ الحجمِ ويمشي مِشيتَهُ السابقةَ يتمايلُ ذاتَ الجنبَيْنِ.. وعادَت التساؤلاتُ الكبيرةُ الى رؤوسِ الشبابِ.. لماذا يمشي هكذا؟؟ ولماذا تعلو الصفرةُ وجهَه؟؟.. هل يتعاطى المخدراتِ يا تُرى؟؟ أم تَراه مدمناً على شربِ الكُحولِ؟.. وهل يريدُ النقودَ إذن لسدِّ احتياجاتِهِ من المخدَّرات والكحولِ؟. حتى لو كَذبَ وقالَ إنَّ بندقيتَه قد سُرِقَت منه؟.

دقائقُ وانتهى الأمرُ.. تم الاستلامُ والتسليمُ.. وفتحَ الاستاذُ كيسَ النايلون للتأكُدِ مما بداخلِه.. واتَّجه كلٌّ في الاتجاهِ الآخرِ.. هو الى القدسِ، ليتزَوَّدَ بما ينقُصهُ من المخدراتِ، وهم الى مقبرةِ مخيَّم الدهيشةِ..

ركبَ الشبابُ الثلاثةُ الحافلةَ.. لم يفتَحْ احدٌ فاه بكلمةٍ واحدةٍ.. شاهدوا معا المنتزهَ يَعجُّ بالشبابِ والشاباتِ اليهودياتِ من رجالِ ونساءِ المستوطناتِ القريبةِ من مخيمِ الدهيشةِ.. كان كلُّ شاب يعانِقُ فتاتَهُ ويهمِسُ بأذنِها كلَّ احاديثِ العشقِ.

ولما كان اليومُ السبتُ فقد كان عددُهم اكثرَ من أيِّ يومٍ آخرَ.. وَوَصلت الحافلةُ قربَ المقبرةِ فنزلَ الشبابُ الثلاثةُ كي يكمِلوا المشوارَ مشياً على الأقدامِ.. ولأنَّ اليومَ السبتَ فلقد كانت المقبرةُ خاليةً الا من أرواحِ الامواتِ..

أشارَ الاستاذُ خالدُ الى مكانٍ قريبٍ من مَدْخَلِ المقبرةِ نبتَت حولَه شجيراتُ الصبارِ وبَدأَ عيسى يحفرُ بيدَيْهِ قبراً موازِياً للقبرِ الموجودِ وأصغرَ منه قليلاً.. كأنه قبرُ طفلٍ، بينما

ابتَدأَ الاستاذُ خالدُ يفتَحُ كيسَ النايلون ليرَى البندقيةَ والذَّخيرةَ ويتأكَّدُ من سلامَتِها للمرَّةِ الثانيةِ.. وسعيدُ يراقبُ الطريقَ..

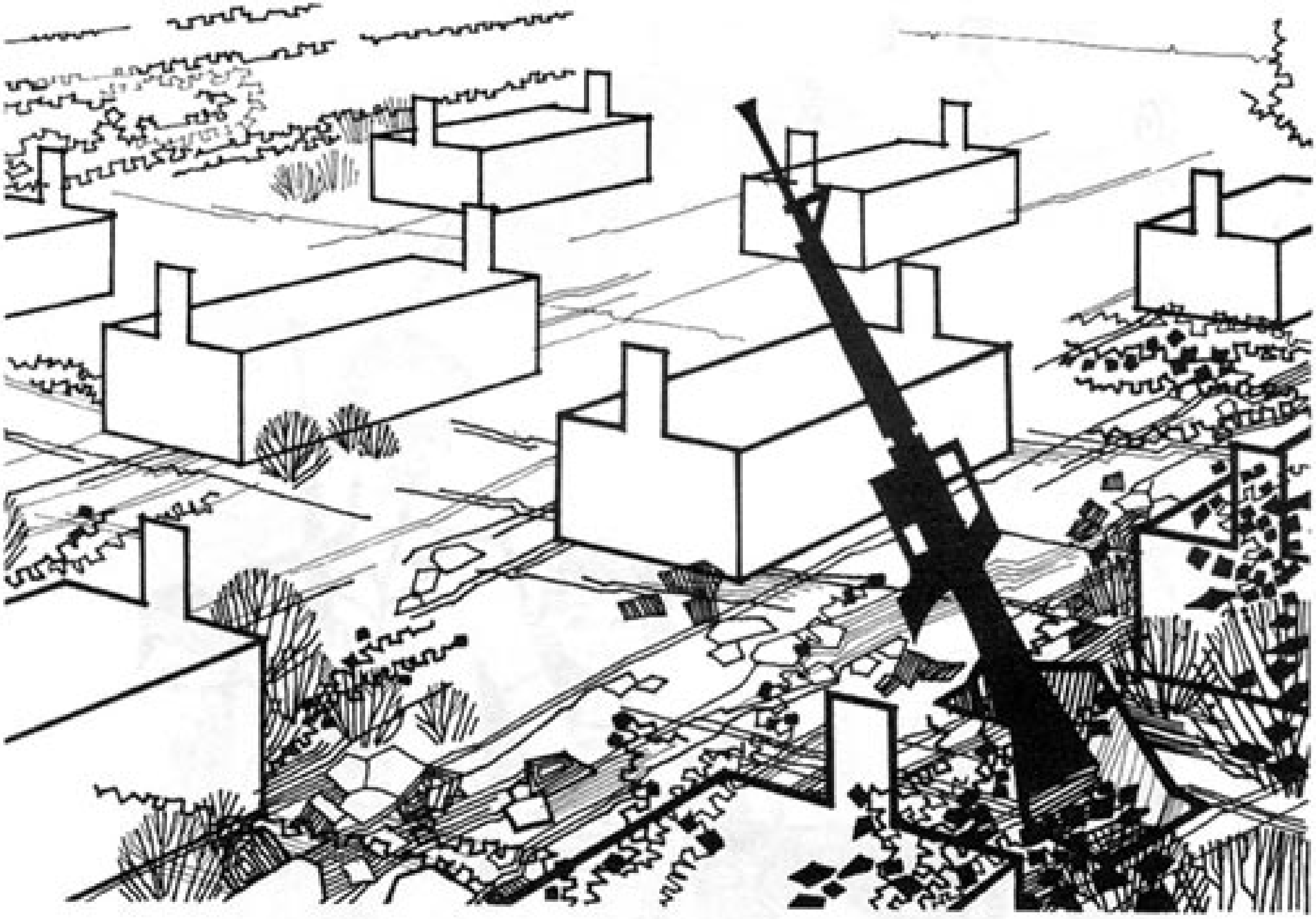

في مساء يوم الاثنين فتحتَ سناءُ وأمُّ عيسى وزوجةُ الاستاذِ خالدٍ.. أجهزة التلفاز كلٌّ في بيتِها ومع عائلَتِها.. كان سعيدٌ وعيسى والاستاذُ خالدٌ يجلسون ايضاً في بيوتِهم يستمعون لنَشرَةِ الاخبارِ المصورةِ الساعةَ السابعةَ والنصفَ مساءً.. وكان صوتُ المذيعِ الاسرائيلي متجهما وهو يقول:

«في الساعةِ الرابعةِ عصراً من بعدِ ظهر أمسٍ عثرَ رجالُ الشرطةِ في المنتزهِ قربَ بيتِ لحمَ على شابٍ وفتاةٍ اسرائيليين من سكّانِ المستوطناتِ قربَ مخيمِ الدهيشةِ وقَدْ قُتِلا رمياً بالرَّصاص.. كانَ الشابُ والفتاةُ يتنزهانِ في المنتزَهِ عندما فاجأهُما أحدُ المخربين يحملُ بندقيةً تبيَّنَ أنَّها امريكيةُ الصنعِ من نوعِ (M 16) واطلقَ عليهما الرَّصاصَ بعدَ أنْ قيَّدَهما الى أحدِ المقاعدِ الحجريةِ في المنتزهِ.. ويعتقدُ من ملابساتِ الحادث أنَّ واحداً أو اثنين من «المخربين» قَدْ قاما بهذا العملِ «الإجراميّ».. وقد بدأت التحقيقاتُ على الفورِ لمعرفةِ الأسبابِ الدافعَةِ وراءَ هذا العملِ، ولمعرفةِ كيفيةِ حصولِ هؤلاءِ المخربينَ على البندقيةِ، ولملاحقتِهم والقبضِ عليهم وعلى السلاحِ الذي استخدموه».

أنهى المذيعُ الاسرائيليُ حديثَه وقد وضَع صورةَ رجلٍ عربيٍّ يضعُ حطَّةً على رأسه ويلف بها وجهَه ورأسه فلا تظهرُ الا عيناه.. ثمَّ اضاف قائلاً:

«ويعتبر هذا العملُ «الاجرامي» حلقةً من سلسلةِ أعمالٍ مشابهةٍ لم يستطعْ رجالُ الشرطةِ الاسرائيليةِ الكشفَ عن هويةِ مرتكبيها ولا التَّوَصُّلَ الى معرفةِ مصادرِ حصولِهم على الأسلحةِ، والسلاحُ المستعملُ هو سلاحٌ محليٌّ يستعملُهُ الجنودُ والحراسُ الاسرائيليون، وإن كانَ يُعتقَدُ أنَّه نفسُ نوعِ السلاحِ الذي فُقِدَ من أحدِ الحراسِ في مدينةِ القدسِ قبلَ ايامٍ ..»

نظرت سناءُ الى أمِّها.. ثم أخذتَ تُحدِّقُ في وَجهِ أخيها سعيدٍ الذي كانَ يستمعُ الى الخبرِ بكلِّ جوارحِهِ.. وقالَت:

ـ هل سمعتَ يا سعيدُ؟؟.. إنه لغزٌ مُحيرٌ.. كيفَ يقولون إنَّهُ سلاحٌ اسرائيليٌّ ثم يقولون إنَّ أحدَ «المخربين» العربَ قد استعملَهُ؟ ثمَّ قلْ لي يا سعيدُ هل اللذان قُتِلَا هما من الذين يحضرونَ الى مخيَّمِنا كلَّ فترةٍ؟؟

قال سعيدٌ:

ـ ولماذا تسألينني يا سناء؟؟ لا اعرفُ عن الموضوع شيئاً.

أمّا أمُّ عيسى فلقَدْ كانت تستمِعُ الى الخبرِ وقدْ اقتربَت من التّلفازِ حتى كادَت تُلاصقُه.. كانت تريدُ ان تطمئنَ وتسمعَ نهايةَ الخبرِ خشْيةَ أن يقولوا «إنَّهم قد قبضوا على الجاني».. ولما انتهى الخبرُ هَبّت قائمةً من قربِ التلفازِ وأقفلَتْهُ بينما قالت لابنِها عيسى بكلِّ لهفةٍ:

ـ عيسى! يا ابني يا عيسى، قُم نروحُ عِندَ خالَتِكَ أمّ سعيدٍ ننقلُ لها الخبرَ ونبارُك لها فيه، فقد تكونُ لم تسمعْهُ بعدُ!! قم يا ابني قم، واللهِ ربُّنا كبيرٌ ولا يمكنُ أن ينسانا..

وقامَ عيسى من فورِه.. فهذه فرصةٌ للجلوسِ عائلياً مع سناء.. وسَماعِ رأيها بالخبر وبالرجالِ الذين قاموا به!!

أمّا فاطمةُ زوجةُ الاستاذِ خالدٍ فلقد اخذَت تنظرُ الى زوجها تارةً والى المذيعِ تارةً اخرى.. كانت تريدُ أن ترى تأثيرَ مثلِ هذا الخبرِ على زوجِها، فهو في الآونةِ الأخيرةِ ومنذُ اعتقالِه في السجنِ، لم يَعُدْ يُبدي أيَّ اهتمامٍ بالاخبارِ السياسيةِ مطلَقا. لم يَعد يهتمُّ لو رأى المستوطنينَ الاسرائيليين يدخُلون المخيمَ، او يطلقونَ الرّصاصَ أو يرمونَ المناشيرَ أو يصرخون ويشتمونَ الأهالي.. أصبح غريباً حقاً، كأنَّ أمرَ المخيمِ لا يَعنيه.. يدخلُ بيتَه ويقفلُ بابَه حتى لو قامَت الدنيا أو قعدَت في الخارجِ، وهي في حيرةٍ من سلبيتِه المطلقةِ تجاهَ اهلِه وأهلِ المخيمِ، فهل يمكنُ أن يؤثّرَ السجنُ الى هذه الدرجة على الإنسانِ فيفقدَهُ انسانيتَه وشعورَه؟ وهل سيعيدُ إليه سماعُ مثل هذا الخبرِ الذي أشغَلَ رجالَ الشرطةِ والمخابراتِ الاسرائيليةِ نخوتَه وكرامتَه؟ هل سيحس أن هؤلاءِ الشبابَ الذين قاموا بذلك العملِ إنما يثأرون له ولأمثالِه من الذين يُذلون ويتعذبون على أيدي الجنودِ والشرطةِ الاسرائيليين؟!

وظل لغزُ البندقيةِ (M 16) محيراً للمخابراتِ والشرطةِ العسكريةِ الاسرائيليةِ بل واتّسعَ نطاقُ اللغزِ ليشملَ مناطقَ أخرى في فلسطينَ، في غزَّةَ، في الخليلِ، في حيفا، في عكا.. مخازنُ الاسلحةِ الاسرائيليةِ بدأت تفقدُ كلَّ مدةٍ عدداً من البنادقِ والذخيرةِ.. ضباطٌ في الجيشِ الاسرائيلي بدأوا يُستَجْوبون لمعرفةِ أين وكيف تضيعُ بنادِقُهم.. بينما كانَ بعضُ الشبابِ يزورونَ اقاربَهم الأمواتَ في المقابرِ بينَ الحينِ والحينِ..

تمت

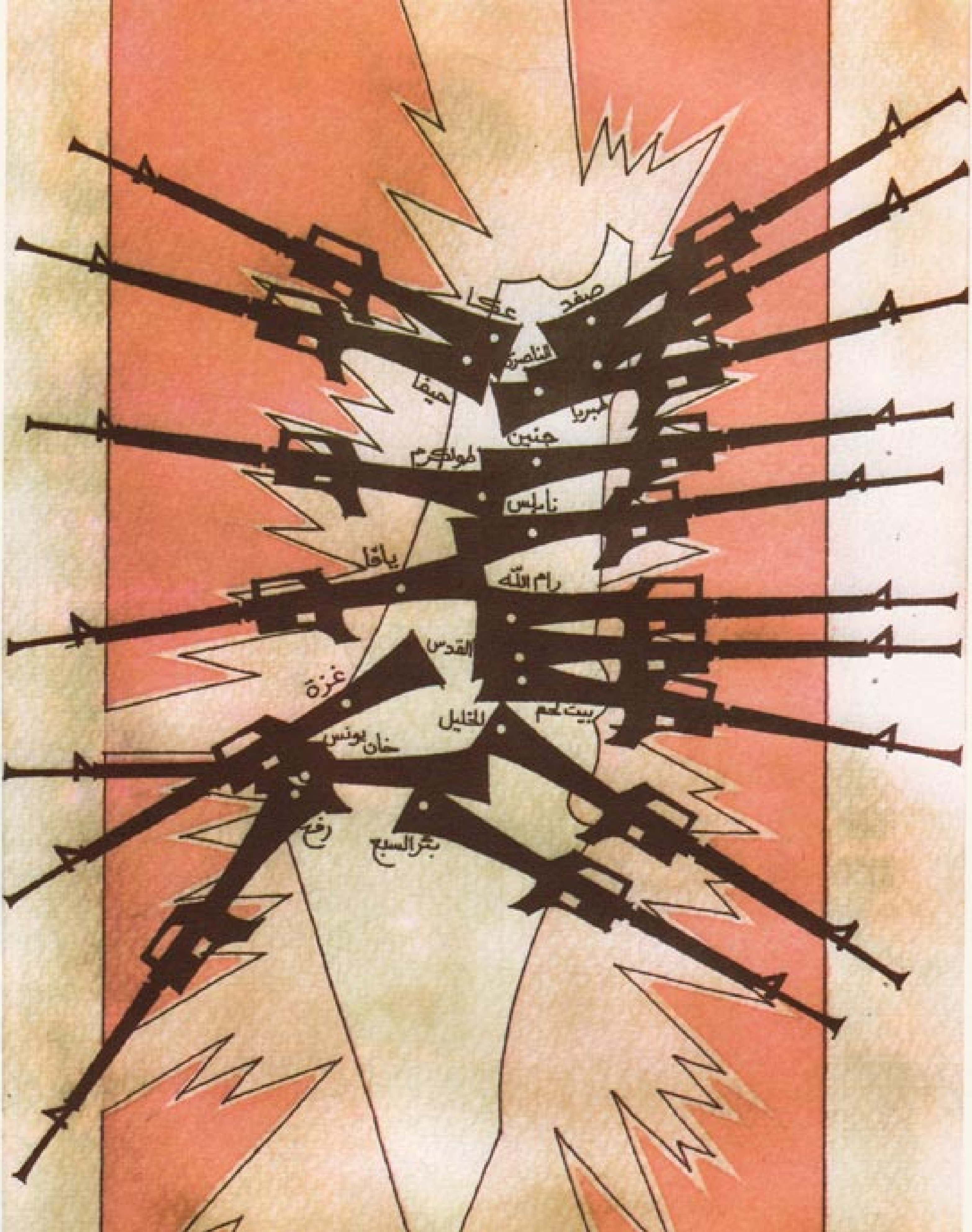

«وتفجّرت المقاومةُ ضد الوجود الصهيوني في كل مكان»

دقق النص: السيد معتز مراد الهدهد

طباعة
مؤسسة الخدمات العربية
عمان - الأردن

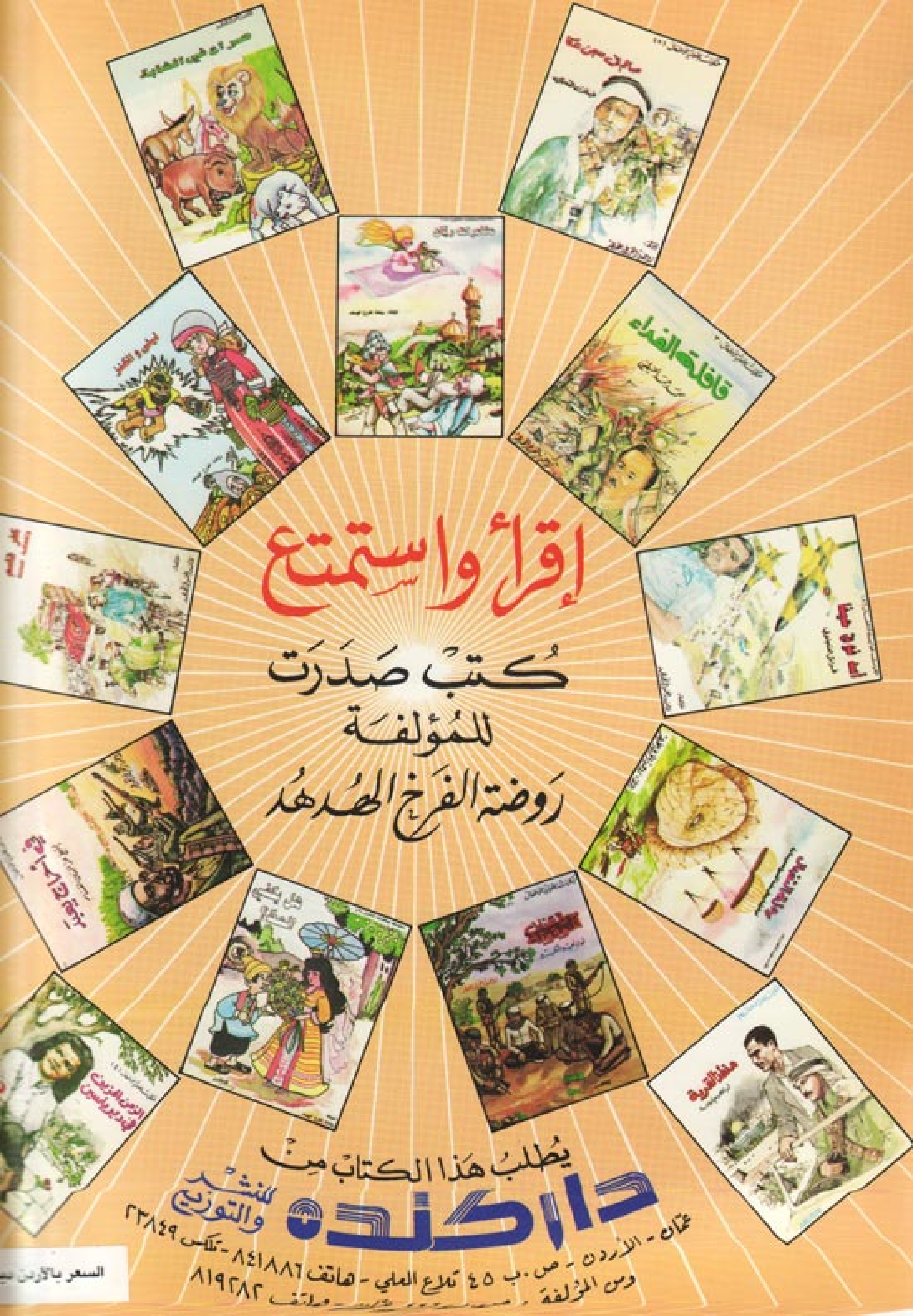
إقرأ واستمتع
كُتُبٌ صَدَرَت
للمُؤلفَة
رَوضة الفَرخ الهُدهُد
يُطلَبُ هَذا الكتابُ مِنْ
دار الكندي
للنشر والتوزيع
عمّان - الأردن - ص.ب ٤٥ تلاع العلي - هاتف ٨٤١٨٨٦ - تلكس ٢٣٨٤٩
ومن المؤلفة - هاتف ٨١٩٢٨٢
السعر بالأردن